معارك عربية إسلامية خالدة

٩ - معركة القادسية

١٠ - فتح المدائن



معارك عربية خالدة

٨

مَعركةُ القادسيّةِ

إعـــداد

عبدالقادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

أحمد عبدالله فرهود

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 - 1420 هـ - 2000 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة القادسية

تمهيد :

كانت معركة الجسرِ بمثابةِ مقدمةٍ وتمهيد لمعركـــةٍ قويـــةٍ وفاصلةٍ بين المسلمين والفرسِ .

ولقد تركت تلك المعركةُ في نفوسِ المسلمين ذكريـــاتٍ أليمةً ، وخلَّفتْ في قلوبهم أحزاناً عميقةً ، وآلاماً مُمِضَّـــةً لا تفارقهم إذا ابيضَّ النهارُ ، ولا تغادرهم إذا اسودَّ الليلُ .

ومضتْ تلك الاحزانُ والآلامُ تشتدُّهم ، وتقسو عليـــهم آخذةً في التعاظمِ والطغيانِ لا تتركهم فينسوا ، ولا تنفـــكُّ عنهم فيستريحوا ، وهم يتحدثون عن قتلاهم إذا أضحـــوا ، ويذكرون مصرعَ أميرهم إذا أمسوا ، حتى كادَ الوهنُ ينـــالُ

من قوتهم ، واليأس يحبطُ من عزيمتهم ، ويجعلهم يستسلمون للضعفِ والقنوطِ ويركنون إلى الجبنِ والخوفِ ، حتى إذا بلغ بهم اليأسُ كلَّ مبلغ ثاروا على الجراح بالسلاح ، وعلى الآلامِ بالآمال ، وعلى الضعفِ بالقوةِ ، وعلى اليأسِ بالعزيمةِ، وعلى الخوفِ بالشجاعةِ ، وعلى الجبنِ بالإرادةِ ، وعلى الوهنِ بالتصميم ، وعلى القنوطِ بالإيمان ، وعلى الإحجامِ بالإقدامِ ، وما كان لمؤمنٍ أن يكونَ يوماً بائساً ولا خائفاً ، ولا جباناً حين الزحفِ، ولا ضعيفاً بلقاءِ العدو ، ولا قانطاً من رحمةِ الله ، ولا محجماً في ساعةٍ الكر والفر وهو الذي يتلو قولَ الله تبارك وتعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسولهِ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصابرين ﴾[١].

---

[١] الآيتان ٤٥ ـ ٤٦ من سورة الأنفال .

وقوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولُّوهمُ الأدبار. ومن يولِهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللهِ ومأواه جهنم وبئسَ المصيرُ ﴾[1] .

فما كان من المؤمنين إلا أنِ انتفضوا من أماكنهم ، وصحوا من غفلتهم ، واستيقظوا من كبوهم ، وداسوا على جراحاهم ، وقاموا بكلِ ثقةٍ واعتزازٍ وهمُ الذين قدموا أربعةَ آلافِ شهيدٍ في تلكم المعركةِ ، وهمُ الذين أثخنتهم الجراحُ وأقعدهم عن القتالِ .

فماذا عليهم أن يفعلوا ...؟

هل سيبقون مستسلمين لأحزاهم ، مشغولين بآلامهم ، يندبون حظّهم ، ويجففون دماءهمْ ...؟

(١) الآيتان ١٥ ـــ ١٦ من سورة الانفال .

إنَّ شأنهم في مثلِ هذا الموقفِ أن، ينتصروا علــى الآلام ، ويتفوقوا على الأحزانِ ، ويدوسوا على الجراح ، ويســتعينوا بكلِ ما يمكنهم الاستعانةُ به ، فهم سيواجهون غداً عــــــدواً شرساً، حديثَ عهدٍ بالنيلِ منهم ، وله عليهم جرأةٌ قد تحفـزه للتفكيرِ في العودِ إليهم لاستئصالهم ، والقضاءِ عليهم ، فــهو أكثرُ منهم عدداً وعدةً وقد نال منهم بالأمسِ مــــا نــال ، وعددُهُ أكبرُ ، وعُدَّتُهُ أكثرُ ، وقوتُهُ موجودةٌ وموفورةٌ .

أمّا المسلمون فقد نقص عددُهـــم ، ووهنــتْ قوتُــهم وفشتْ جراحاتهم ، وكثرَ عددُ الشهداءِ في صفوفهم .

لم تغــبْ هــذه الحقيقــةُ عنِ القائــدِ المؤمــن المثــنى ابــنِ حارثــةَ ﷺ، ولم تغادر تلك الصورةُ المزعجةُ خيالَهُ .

لقد رأى المثنى ما حلَّ بجيشهِ فحزن حزناً شديداً ، وتـألَّم لما أصابَهُ ألماً كبيراً، ولكنه سرعانَ مـــاانتفض مــن مكانــهِ انتفاضَ الاسدِ في عرينهِ ، وقد ضغط على أسنانهِ ، وأمســك بقبضةِ سيفهِ يسلُّه حيناً ، ويعيدُهُ إلى غمدِه حيناً ، وهو يحلّــقُ

ببصره، ويتأملُ بفكره ، ويقلبُ الأمور بخاطره ، فـــرأى أن الواجب يقضي عليه قبل كلِ شيءٍ أن ينقذَ جيشَهُ مما أصابَــهُ من قتلٍ وجراحٍ ، وتقهقرٍ وهزيمةٍ ، وما سرى إلى أفراده مــن وهنٍ وضعفٍ وتعبٍ وسلبيةٍ ، وهمُ الذين لم يعرفــوا معــنى الضعف والوهن والسلبية وهم الذين كانوا في جميع مراحــلِ حياهم أقوياءَ في دينهم ، أقوياءَ في عقيدهـــم ، أقويـــاءَ في أجسامِهم ، أقوياءَ في عزيمتهم وإرادهم .

المسلمون يستعيدون قوتهم :

وقف المثنى أمام الجسرِ وجعل ينادي بالمسلمين :

أيها الناسُ ، على هينتكم ، فإني واقفٌ على فمِ الجســرِ لا أجوزُهُ حتى لا يبقى منكم أحدٌ ههنا .

فلما سمع الناسُ نداءَهُ وتشجيعهُ ، قاموا مـــن أماكنـــهم وجعلوا يجتازون النهرَ إلى الضفةِ الأخرى ، ثم انطلق بهم حتى نزل مكاناً آمناً ، فضرب اللهُ عليهم النومَ ، وقام المثنى ومعــه

عدد من الفرسان والشجعان يحرسهم ، ويسهر على راحتهم حتى أخذوا وافرا من راحة الجسم والأعصاب ، واستعادوا قوهم ونشاطهم ، ليجددوا الهمة ، ويضاعفوا الجهد ، ويكروا على عدوهم انتقاما لما حل بهم في يوم الجسر .

وكأن الله عز وجل يذكرهم بما أصابهم يوم أحد ، وبعدهم بالنصر والفتح والتفوق ويؤكد لهم أن هذه سنة الله في خلقه ، وسنة الله لا تتبدل ولا تتحول ، ولا تتأخر ، ولا تحيدُ، ﴿ فلن تجد لسنةِ الله تبديلاً ، ولن تجد لسنةِ الله تحويلاً ﴾ [1] .

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين . إنْ يمسسكم قرحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلُهُ وتلك الأيام نداولها بين الناسِ وليعلم اللهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداءَ واللهُ لا يحبُ الظالمين . وليمحِصَ اللهُ الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم

(1) الآية ٤٣ . من سورة غافر.

حسبتم أنْ تدخلوا الجنةَ ولما يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين﴾ [1].

ولقد مضت سنة الله تعالى أن يتعرضَ المؤمنون لأنواع المحنِ والشدائدِ فيتفوقوا عليها ، وينتصروا بإيمانهم وصبرِهم وثباتهم ، شاكرين الله تعالى على المنحِ ، صابرين على المِحنِ،لينالوا الدرجاتِ العلى ، ويفوزوا برضوانِ الله تعالى ﴿مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين وحسُنَ أولئك رفيقاً . ذلك الفضلُ من اللهِ وكفى بالله عليماً ﴾ [2] صدق الله العظيم .

وما أشبهَ اليومَ بالأمس ...!!

وما أقربَ اليومَ الى البارحةِ ...!!

بالأمسِ ، وفي يومِ أحدٍ كان المسلمون مثْقلين بالجراحِ وقد فقدوا سبعين شهيداً ، إذا بالرسولِ ﷺ يدعوهم أن

(١) الآيات ١٣٨ ــ ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٦٩ ــ ٧٠ من سورة النساء .

يطلبوا المشركين إلى حمراءِ الأسدِ ، ويقولُ لهم : ولا يخرجْ معنا إلا مَنْ شهدَ القتالَ بالأمسِ .

والحكمةُ في ذلك أن النبيَّ ﷺ أراد أن يُظهرَ الشدةَ والبأسَ للعدو ، ليعلموا من خروجِ المسلمين مع كثرةِ جراحاتهم ، وما أصابهم من القتلِ أنهم على غايةٍ من القوةِ والرسوخِ في الإيمانِ ، وحبِ الرسولِ ﷺ وطاعتِهِ ، والمبالغةِ في تعظيم واحترام من شهد أحداً.واليوم،وبعد معركة الجسر والمسلمون مثقلون بالجراحِ وقد فقدوا أربعةَ آلاف شهيدٍ لم تجفَّ دماؤهم بعدُ ، إذا بالمثنى بنِ حارثةَ يستنهضُ هِمَمَهُمْ ، ويلهبُ حماسَهم ، ويشجعهم على لقاءِ العدوِ ، ويذكي في نفوسهم حبَّ الإقبالِ على القتالِ، والاستشهادِ في سبيلِ الله، والشهادةُ هي غايةُ كلِ مسلمٍ يحرصُ على حسنِ الخاتمةِ ، ويخشى على نفسه سوءَ العاقبةِ .

ورأسُ مالِ المؤمنين في كلِ شأنٍ من شؤون حياتهم ، وخاصةً في مثل هذه المواقفِ ، مواقفِ لقاءِ العدو ، وتحديد

المصيرِ ، هو الإيمانُ باللهِ تعالى ، وحُسْنُ التوكلِ عليه ، ورفع الروحِ المعنويةِ في النفوسِ .

من أجلِ هذا استطاع المثنى رضي الله عنه أن يقضي على الفتورِ العارضِ الذي أصاب قومَهُ ويعيدَ إليهم الثقةَ في نفوسهم ، والاعتماد على اللهِ تعالى ، بعد أن أخلدوا إلى النومِ ، وهو يقومُ بحراستهم حتى استعادوا قوتهم ونشاطهم ، وأصبحوا أشدَّ قوةً ، وأقوى شكيمةً ، وأكثرَ إقبالاً ، وأمضى بلاءً ، وأسرع استعداداً وشوقاً إلى لقاءِ العدوِ .

وكأني بهم وهم يستجيبون للمثنى بنِ حارثةَ ، كاستجابتهم لرسولِ الله ﷺ يومَ حمراءِ الأسدِ ، يومَ نزل عليهم الثناءُ العطرُ من الله تعالى على قلبِ الرسولِ الكريم ﷺ ليعطرَ الوجودَ كلَّهُ بطيبِهِ وشذاه ، وهو يثني على المؤمنين الصادقين ، ويمدحهم بقولِهِ تعالى :

﴿ الذين استجابوا لله والرسولِ من بعدِ ما أصابهم القرحُ[1] للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيمٌ . الذين قال لهمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ . فانقلبوا بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ لم يمسهم سوءٌ واتبعوا رضوانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ. إنما ذلكمُ الشيطانُ يخوّفُ أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إنْ كنتم مؤمنين ﴾[2] صدق الله العظيم.

فهل يخافُ المؤمن بعد أن يتلو هذه الآيات الكريمةَ ، أو يسمعَها تتلى أمامهُ ...؟ وهل يخشى المؤمن القتلَ في سبيلِ اللهِ بعد أن يسمعَ هذا الثناءَ العطرَ من اللهِ تعالى لعبادهِ المؤمنين المجاهدين في سبيلهِ ...؟

أم هل يتوقى لقاءَ العدو ، أم يسارعُ قدماً للقائِهِ ، ويسأل اللهَ تعالى الشهادة في صباحِهِ ومسائِهِ ...؟

---

[1] القرح : الجراح .

[2] الآيات ١٧٢ ـــ ١٧٥ من سورة آل عمران .

أما المؤمنون الصادقون فقد فعلوها وسألوا الله عز وجل أن يمنحهم إياها في صباحهم ومسائهم ، وهتف هاتفهم وقد مُنحها : (فزتُ وربِ الكعبةِ) وكذلك أصبح حالُ المؤمنين بعد معركةِ الجسر : (استجابوا للهِ والرسولِ من بعدما أصابهم القرحُ ...)الآية .

اجتماعُ الفرسِ تحت قيادةِ رستم :

انتصر المسلمون على الفرسِ في معركةِ البويبِ انتصاراً ساحقاً ، وانتقموا لأنفسهم ولقتلاهم في معركةِ الجسرِ انتقاماً شديداً ، أعاد لهمُ الثقةَ ، وجدَّدَ لهمُ الأملَ في النصرِ والفتحِ والتفوقِ على العدو ، الأمرُ الذي أغضبَ الفرسَ ، وأثارَ حَنَقهم ، وجعلهم يشعرون بفقدانِ هيبتهم ، واهتزاز عرش ملكهم ، وتعرُّضِهِ للتهاوي والسقوطِ . فاجتمعوا لهذا الأمرِ ، وأخذوا يتشاورون لاختيارِ قائدٍ قويٍّ وعنيدٍ يعتمدون عليه في قتالِ المسلمين ، وتأديبهم ، وطردهم من العراقِ . فاتفقتْ كلمتهم على أن يقومَ رستم بهذه المهمةِ ،

وأن يقومَ بمساعدته قائدٌ آخرُ يقالُ له الفيرزانُ ، وتواصـــوا على ضرورةِ قتالِ المسلمين ، وتأديبهم ، ففي ذلك ســـلامةُ فارس ، والمحافظةُ على قوتِها ومكانتها ، وإعادةُ كرامتها أمام الدولةِ العظمى التي تنافسُها على الزعامةِ ، والتسلطِ علـــى الأممِ الأخرى ، وهي الإمبراطوريةُ الرومانيةُ .

ولقد شدَّدَ الزعماءُ والقادةُ الفارسيون الأمرَ على رستـمَ والفيرزانِ ،وحذروهما من الفشلِ في تنفيذِ مهمتهما ، وقـالوا لهما : لئن لم تقوما بالحربِ كما يجبُ لنقتلنكما ، ونشـــتفي بكما .

اختيارُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ لقتالِ الفرسِ :

حين أقلقتِ الأنباءُ أميرَ المؤمنين عمرَ ﷺ ، وجاءَتْ إليه تخبِرُه بنتائجِ معركةِ الجسرِ التي ذهب ضحيةً لها في يومٍ واحـدٍ أربعةُ آلاف شهيدٍ وباجتماعِ الفرسِ على يزدجردَ ، واختيـارِ رستمَ قائداً أعلى للجيوشِ الفارسيةِ واستعدادهم التامِ لقتـالِ المسلمين ، ونقضهم العهودَ والمواثيقَ التي كانت عليـــهم ،

وإيذائهم المسلمين ، وإخراجِ بعضِ الولاةِ من بين أظهرهمْ .

كلُ هذه الأمورِ في رأي أميرِ المؤمنين عمـــرَ أصبحـــت تشكلُ خطراً حقيقياً على المسلمين في العراقِ .

من أجل هذا اشتدَّ قلقهُ ، وخشي على سلامةِ المسلمين، فقرر أن يذهب بنفسه إلى العـــراقِ ، ويقـــودَ المســـلمين في حربهم مع الفرس .

وفي الأول من المحرمِ ، وفي السنةِ الرابعةِ عشرة جـــــهز الجيشَ فعلاً ، ومضى يقودُهُ حتى نزل بمكانٍ فيه ماءٌ يقال لـــه (صرار)[1] فعسكر به عازماً على غزوِ العراقِ .

وكان قدِ استخلف على المدينةِ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﵁، وصحبَ معه عثمانَ بنَ عفانَ ، وعدداً من ساداتِ الصحابـةِ رضي الله عنهم .

---

(1) صرار : موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق . انظر معجم البلدان .

وفي صرارِ عقد عمرُ ﷺ مجلساً استشارياً أخذ فيـه آراء الصحابة فيما عزم عليه،ونودي:الصلاة جامعةٌ،وأرسـل إلى عليّ يستقدمه من المدينةِ للمشاركةِ في الأمر .

وقدِ افتتح عمرُ المجلسَ وأخذ يستشيرُ كبارَ الصحابـةِ ، ويستعين بآرائهم حول أمرِ ذهابهِ شخصياً إلى العراقِ .

فوافقوه جميعاً إلا عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ ﷺ، فإنه قام وقال له : إني أخشى إن ذهبتَ أن يضعفَ أمرُ المسلمين في سـائرِ أقطارِ الأرضِ ، وإني أرى أن تبعثَ رجلاً ، وترجع أنـتَ إلى المدينةِ .

ومضى عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ يعلنُ لعمرَ وللمسـلمين أن ذهابَ عمرَ إلى العراقِ ، والإسلامُ يعيشُ أيامـه الفاصلـةَ مخاطرةٌ جسيمةٌ ، والتضحيةُ بحياةِ أميرِ المؤمنين عمرَ عملٌ غيرُ سديدٍ .

ومال جميعُ المسلمين إلى رأي عبدِ الرحمنِ بنِ عـوفٍ ﷺ وأيّدوه ، واتفقوا أن يرجعوا إلى المدينةِ لاختيارِ قائدٍ مناسـبٍ

يرونه، ويتفقون على إمرتِهِ .

فلم يرَ عمرُ ﷺ بُدًّا من الموافقةِ على ما أجمع عليه أصحابُ رسولِ الله ﷺ، وراح يسألهم : فمن ترون أن نبعثَ إلى العراقِ ..؟

وبعد صمتٍ طويلٍ ، وبعد النظرِ والتأملِ ، وتقليب وجهات النظرِ ، انطلق صوتُ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ يعلنُ اختياره للقائدِ المنتظرِ ، ويقولُ بعدَ أن أرسل يدَهُ عن لحيته التي كان يعبث بها وهو يفكرُ ويتأملُ : قد وجدتُهُ .

وأخذ أصحابُ رسولِ الله ﷺ ينظرون حولهم ويتساءلون : من هو ..؟

قال : الأسدُ في براثنِهِ ، سعدُ بنُ مالكٍ الزهريُّ .

فأيدَ عمرُ والمسلمون هذا الاختيارَ الموفّق واقتنعوا جميعاً بإمارةِ سعدٍ ، وكيف لا يوافقون ..؟ وهو الأسدُ في براثنه ، وهو الذي كان رسولُ ﷺ يحترمُهُ ويفخرُ به ، ويقولُ لأصحابِهِ : هذا خالي ، فلْيُرِني امْرُؤٌ خالَهْ ...!!

وكيف لا يوافقون على إمرتِهِ وهو المعروفُ بين جميعِ الصحبِ الكرامِ بأنَّهُ أول منْ رمى بسهمٍ في سبيلِ الله ، وأولُ مَنْ رُميَ ...!!

من أجلِ هذا أيَّدَ المسلمون هذا الاختيار الموفقَ ، وأجمعوا على أن يكونَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ ﷺ القائدَ الأعلى للجيوشِ الإسلامية في العراق .

فارسل إليه عمرُ فولاه القيادةَ العظمى ، وأسند إليه مهمة فتح العراق وتحرير أرضه من تسلّط الفرس واحتلالهم ،ونشر الإسلامِ بين أفرادهِ ورفعِ لوائهِ فوق ربوعِ أرضهِ لينعمَ أهله بالخيرِ والأمنِ ، والرحمةِ والتسامحِ والإنسانيةِ .

وصيةُ عمرَ لسعدٍ :

قلَّدَ عمرُ سعداً لواءَ فتحِ العراقِ ، وزوّدَهُ بنصائحَ عظيمةٍ وجامعةٍ ، وقدم إليه نصائحَ نفيسةً وجليلةً ، فقال له:

ياسعدُ بنَ وُهيبٍ (لا يغرنَّك من الله أنْ قيلَ عنك خالُ رسولِ الله ﷺ وصاحبه ، فإنَّ اللهَ لا يمحو السيئ بالسيئ ،

ولكنْ يمحو السيئ بالحسنِ وإنَّ الله ليس بينه و بـــين أحـــدٍ نسبٌ إلا بطاعتهِ ، فالناسُ شريفهم ووضيعـــهم في ذاتِ الله سواءٌ .. اللهُ ربهم ، وهم عبـــادُهُ، يتفـــاضلون بالعافيـــةِ ، ويدركون ماعند الله بالطاعةِ فانظر الأمر الذي رأيت رســولَ الله ﷺ منذُ بُعثَ إلى أن فارقنا عليه فالزمْهُ ، فإنه الأمرُ هــذه عظتي إياكَ ، إن تركتها ورغبتَ عنها حبط عملك وكنـــت من الخاسرين) وحين ودعّه، وودّع جنود الله المؤمنين ، قال له وهم يسمعون ، فالوصية ليستْ لسعدٍ فقط ، بـــل لــه وجنوده :

(إنك ستقدم على أمرٍ شديدٍ ، فالصبرَ ... الصبرَ على مـا أصابك ونابكَ ، واعلم أنَّ خشيةَ الله تجتمع في أمريـــن : في طاعتِهِ ، واجتنابِ معصيتهِ ، وإنما طاعةُ مَنْ أطاعـــهُ ببغـضِ الدنيا وحب الآخرة .وإنما عصيـــان مـــن عصـاه بحـب الدنيا،وبغض الآخرة .

وللقلوبِ حقائقُ ينشئها الله إنشاءً ، منها السرُّ ، ومنـها

العلانيةُ.

فأما العلانيةُ ، فأن يكون حامده وذامهُ في الحقِ سواءً .

وأما السرُّ ، فيعرفُ بظهورِ الحكمةِ من قلبهِ على لسلنهِ، وبمحبةِ الناسِ ، ومن محبة الناسِ.

فلا تزهَدْ في التحببِ ، فإن النبيّين قد سألوا محبتهم ، وإنَّ اللهَ تعالى إذا احبَّ عبداً حبَّبَهُ ، وإذا أبغضَ عبداً بغَّضَهُ ، فاعتبرْ منزلتكَ عند اللهِ بمنزلتكَ عند الناسِ).

ثمَّ ودَّعَهُ وجيشَهُ ودعاهم بالنصرِ والظفرِ ، وأمرهم بتقوى الله تعالى ، وانصرف عنهم بعد أن ألقى على أسماعهم كلماتٍ عظيمةً كلُّها هدىً ونورٌ ، وقذف في قلوبهم حبَّ اللهِ وطاعتهِ ، وإخلاصَ النيةِ ، وصدقَ العقيدةِ في جهادِ أعداءِ اللهِ ، والمضيَّ قدماً لإعلاءِ كلمةِ اللهِ ونشرِ دينهِ ، ورفعِ لوائهِ عالياً خفاقاً .

كلماتٌ صادقةٌ ورائعةٌ أضاءتْ جوانب سعدٍ وجنودِهِ ، وأنارَتْ أمامهم طريقَ الجهادِ والكفاحِ وجعلتهم يندفعون

بكلِ شوقٍ وحبٍ ورغبةٍ للقتالِ ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، النصرُ أو الشهادةُ، وهما أغلى وأثمن ما يتمناه المؤمنُ ، حرصاً منه على الاطمئنان على حسنِ الخاتمةِ ، والفوزِ برضوانِ الله تعالى ، والظفرِ بجنتِهِ ونعيمهِ والإيمان بقولهِ تعالى:

﴿ فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾[1]وقولهِ تعالى: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيلِ الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾[2]

خطبةُ عمر رضي الله عنه بعد مسير المقاتلين :

انطلق سعدٌ رضي الله عنه يقودُ جيشَهُ إلى العراقِ ، وقد بلغ عددُ أفراده أربعةَ آلاف مقاتلٍ ، وقيل : ستة آلافٍ ، بعد أن ودَّعهم عمرُ ودعاهم بالنصرِ والفتحِ ، ثم رجع إلى المدينة فجمع المسلمين ووقف فيهم خطيباً وقال :

---

[1] الآية ٣٨ من سورة التوبة

[2] الآية ٤١ من سورة التوبة

(إن الله ضرب لكم الأمثال ، وصرف[1] لكم القـــول لتحيا القلوب ، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييـــها الله)[2] .

من علم شيئا فلينفع به ، فإن للعدل أمارات وتباشـــير : فأما الأمارات ، فالحياء والسخاء والهين واللين .

وأما التباشير ، فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابـــا ، ويسر لكل باب مفتاحا ، فباب العدل ، الاعتبار ، ومفتاحــه الزهد ، والاعتبار : ذكر المـــوت ، والاســتعداد بتقــديم الأموال.

والزهد : أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، والاكتفـــاء بما يكفيه من الكفاف فإن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء .

---

[1] صرف القول : بينه قال تعالى : (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل)،أي بينا.

[2] وذلك كقوله تعالى :(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) ...الآية .

(إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحـــدٌ ، وإنّ الله قد ألزمني دفعَ الدعاءِ عنه ، فانهوا شكاتكم إلينا ، فمــنْ لم يستطعْ فإلى مَنْ يُبلّغنا إياها نأخذْ له الحقَ غيرَ ممتنعٍ) .

لقد أراد عمرُ رضي الله عنه بهذه الخطبــةِ البليغــةِ والجامعــةِ أن يطمئنَ الناسَ على أنفسهم ، وإقامةِ العدل بينهم ، ليعـــرفَ كلُّ مسلم حَدَّه فيقف عنده ، وليعلم ماله مِنْ حقٍ فلا يطلب أكثرَ منه، وما عليه من واجبٍ ، فلا يقصِّر في أدائهِ ، وأنـــه خليفةُ المسلمين ، وعليه تطبيقُ شرعِ الله تعالى ، مـــن غـيرِ تفريقٍ ، ولا تمييزٍ ولا محاباة .

وهذا ما يقصدُه بقولِهِ : وإنَّ الله قد ألزمني دفع الدعاءِ عنه .

كما أراد رضي الله عنه أن يطمئن الناسَ على جنـــودِ المســلمين الذين خرجوا مع سعدٍ ليخوضوا معركةَ الشــرفِ والعــزةِ والكرامةِ ، وهم يمثلون قوةَ المسلمين، ويدافعون عن الديــنِ والعقيدةِ ، والأرضِ والعرضِ ، وما من بيتٍ مـــن بيــوت المسلمين إلا وقد خرج منه مقاتلٌ في سبيلِ الله ، وشرفُ كـلِ

مقاتلٍ شرفٌ لكلِ مسلمٍ ، وعزُّهُ عزٌ لكلِ مسلمٍ ، وبلاؤه بلاءٌ لكلِ مسلم ، ولله العزةُ ولرسولِهِ وللمؤمنين .

وصولُ سعدٍ إلي القادسيةِ :

ومضى سعدُ ﷺ نحو القادسيةِ حتى بلغ نهر زرودَ[1] ، ولم يبقَ بينه وبين أن يجتمع بالمثنى بنِ حارثةَ إلا اليسيرُ ، وكلٌ منهما مشتاقٌ إلى صاحبِهِ ، وانتفضَ جرحُ المثنى الذي كان قد أُصيبَ به يوم الجسرِ ، واشتدَّ به النزفُ فمات رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه ، واستلم قيادة الجيشِ بعده بشيرُ ابنُ الخصاصيةِ .

وهناك روايةٌ أخرى تقولُ : إن عمرَ ﷺ حين وَجَّهَ سعداً ﷺ إلى العراق ، كتب إلى المثنى بنِ حارثةَ وجرير بنِ عبدِ الله البُجَلي أن يُسلِّما الإمرة إلى سعدٍ ، ويكونا معه ، وأن يسمعا له ويطيعا ، ولا ينازعاه الامرَ .

---

[1] اسم لبقعة بأرضِ العراق .

فلما بلغ سعدٌ العراقَ وجدهما يتنازعان الإمرةَ ، فـالمثنى يقولُ لجريرٍ : إنما بعثكَ أميرُ المؤمنين مدداً لي .

ويقولُ جريرٌ : إنما بعثني أميراً عليكَ .

فلما قدم سعدٌ دفع لهما الكتابَ ، وإذا فيه أن سعداً هـو الأميرُ ، وأن أميرَ المؤمنين عمرَ ﷺ يأمرهما أن يكونا تبعاً لـه فقالا : سمعاً وطاعةً ، وانقطع نزاعهما بمجيئهِ ، وتخليا عـن كلِ صفةٍ قياديةٍ ، وأصبحا من جنودِ سعدٍ يقـاتلان تحـت لوائهِ.

وسواءٌ مات المثنى قبل وصولِ سـعدٍ أم بعـده علـى اختلاف في الروايتين ، فإن هذا لا يغيرُ من الأمرِ شيئاً ، وهو أن سعداً وصل العراق ، وانتهتْ إليه القيادةُ العظمى بعد أنِ اجتمع إليه القادةُ والأمراءُ وانضموا تحت لوائِهِ .

ثم أمدَّه عمرُ بأعداد من المقاتلين حتى اجتمع معه يـوم القادسيـةِ ثلاثون ألفـاً . وقيل ستةٌ وثلاثون ألفـاً ، فقـال عمـرُ ﷺ : واللهِ لأرْمِيَنّ ملوكَ العجمِ بملوكِ العربِ .

وكان في جيشِ سعدٍ يومئذٍ أكثرُ من ثلاثمئةٍ من الصحابةِ، منهم بضعةٌ وسبعون ممنْ شَهدَ بدراً .وسبعمائة من أبناءِ الصحابةِ رضي الله عنهم .

ولا شكَّ أن الذين شهدوا غزوة بدرٍ هم أفضل الصحابةِ على الإطلاقِ وهمُ الذين شهدوا أول مواجهةٍ مسلحةٍ بين الشرك والإيمان ، فانتصر الإيمانُ على الشركِ ، وتفوقَ الإسلامُ على الكفرِ ، وأيَّد اللهُ المسلمين بنصرِه ، وأمدَّهم بملائكتِهِ، ثم تجلى عليهم فقال لهم : افعلوا ماشئتم فقد غفرتُ لكم .

ومَنْ يدري ...؟!! لعلَّ اللهَ عز وجل سيكتبُ النصرَ لعبادهِ في حربِ العراقِ لوجودِ ثُلةٍ مباركةٍ من أهلِ بدرٍ ...!!

بل وللصدقِ ، والإخلاصِ ، والتفاني الذي كان سائداً بين الصحبِ الكرامِ ، وروحِ التعاونِ والتضامنِ والإيثارِ الذي ماانفكَّ موجوداً في قلوبهم وبين صفوفهم.

وهذه الصفاتُ الحميدةُ من أهمِ عواملِ النصرِ ، وهي

التي كانت متبادلةً بين الناسِ في جميعِ أحوالهم ، في سـلمِهم وحربهم، في قِلَّتِهم وكثرة عددهم ، في فقرهم وغناهم ، في ليلِهم ونهارهم ، في صحوهم ونومِهم ، متعاونين على البرِ والتقوى ، آمرين بالمعروف ، ناهين عنِ المنكرِ ، ملتزمين أوامرَ الله تعالى ، مجتنبين نواهيَهُ ، مطبقين سنةَ رسولِه ﷺ .

لا يختلفون من بعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهدى ، ولا يكونُ لهمُ الخيرةُ من بعد ما أمر اللهُ ونهى ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مّما قضى .

وأنعمْ بقومٍ هذه أخلاقهم ، وأكرِمْ بقومٍ هذه صفاتُهم ، فما من شكٍ أبداً أنْ يكونوا أهلاً لتأييدِ الله تعالى ، ونيلِ النصرِ والفتحِ والظفرِ ، و ﴿ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله واللهُ مع الصابرين ﴾[1] .

---

[1] الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

كتابُ عمرَ إلي سعدٍ :

كتب عمرُ ﷺ يأمرُ سعداً بالمبادرة إلى القادسيةِ ، وهي بابُ فارسَ في الجاهلية ، وأن يكونَ بين الحجرِ والمــــدرِ[1] ، وأن يأخذَ الطرقَ والمسالكَ علــــى فــارسَ ، وأن يبدأهـــم بالقتالِ، وأن يلزمَ الحذر والتيقظَ حرصــــاً علــى ســـلامةِ المقاتلين، وكسبِ المعركة وحسمها في أقصر وقت ، وذلــك أن إطالة مدة الحرب ليست من مصلحةِ المسلمين ، لبعدهـــم عن القيادةِ السياسيةِ في المدينةِ المنورة وصعوبةِ الاتصالِ بهـــا من جهةٍ ، واتصالِ أميرِ المؤمنين عمرَ بهم من جهةٍ أخـــرى ، وهو الذي يمثلُ القيادةَ السياسيةَ ، ويقومُ بتوجيهِ المعركةِ مـن المدينةِ بتقديم التعليمات والتوجيـــهاتِ والنصـــائحِ للقـــادةِ العسكريين عن طريق البردِ[2] وهذا يحتاج إلى مشقة كبيرة ، وجهد جسيم، وقت طويل . أضف إلى ذلك بعد الشــــقة. وفداحة المشقة فقال عمر ﷺ : لا يهولنك كثرة عددهـــــم

---

[1] الحجر : حدود أرض العرب . والمدر : التراب .

[2] البردُ : : جمع بريد ، وكان عن طريق الفرسان الذين يمتطون الخيول .

وعُددهم ، فإنهم قوم خدعة مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة ، رجوت أن تنتصروا عليهم ، ثم لم يجتمع لهم شمل أبداً إلا أن يجتمعوا ، وليست معهم قلوبهم.

وإنْ كانتِ الأخرى[1] فارجعوا إلى ماوراءكم حتى تصلوا إلى الحجرِ[2] فإنكم عليه أجرأُ ، وإنهم عنه أجبنُ وبه أجهلُ حتى يأتيَ اللهُ بالفتحِ عليهم ، ويردَّ لكمُ الكرَّةَ .ثم أمره ﷺ بمحاسبةِ نفسهِ ، وموعظةِ جيشِهِ ، وهو الذي كان دائماً يردد مقولتَهُ المشهورةَ :

(أريدُ رجلاً إذا كان في القومِ وليس أميراً عليهم بدا كأنه أميرُهم ، وإذا كان فيهم وهو عليهم أميرٌ بدا وكأنه واحدٌ منهم .

أريدُ والياً لا يميزُ نفسَهُ على الناسِ في ملبسٍ ، ولا في مطعمٍ ، ولا في مسكنٍ ، يقيمُ فيهمُ الصلاةَ ، ويقسمُ بينهم

---

[1] أي الهزيمة وعدم النصر .

[2] يقصد بالحجر : أدنى حدود أرض العرب .

بالحقِ ، ويحكـــمُ فيـــهم بـــالعدلِ ، ولا يغلـــقُ بابـــهُ دون حوائجهم).

إن هذه التوجيهات الساميةِ ، والنصـــائح العظيمـــةَ ، والتعليمات السياسيةَ والعسكريةَ تصلح لأن تكـــون مثـــلاً أعلى لكل قائد عسكري ، أو زعيمٍ سياسي .

ويمكنُ أن تكونَ هذه الإرشاداتُ دروساً لكلِ مصلـــحٍ اجتماعي في الكلياتِ النظرية ، أو مـــدرسٍ عســكريٍّ في الكلياتِ العسكريةِ ، وكلياتِ الاركانِ في العالمِ كلهِ .

ولسوف تبقى وصايا عمرَ وتوجيهاتهُ نموذجـــاً حيـــاً ، ومثلاً أعلى ، يحتذيه كلُ قائدٍ في أيةِ أمةٍ ، وفي كـــلِ زمـــانٍ ومكانٍ .

ولنرجعْ مرةً أخرى إلى نصائحِ عمرَ ﷺ لسعدٍ ، وهـــو يأمرُهُ بمحاسبةِ نفسهِ، ووعظِ جنـــوده، وإخـــلاصِ النيـــةِ ، والتزامِ الصبرِ ، فإنَّ النصرَ يأتي من الله تعالى على قدرِ النيـــةِ، والأجرَ على قدر الحسبةِ .

ويتابع ﷺ قائلاً : وسلوا الله العافيةَ ، وأكثروا من قـول لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم، واكتب إليَّ بجميـــع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنــزلون ..؟ وأيـــن يكــونُ منكم عدوكم ، واجعلني بكتبكَ إليَّ كأني أنظـــرُ إليكـــم ، واجعلني من أمرِكم على الجليّةِ ، وخفِ الله وارجُـــــهُ ، ولا تذلَّ بشيءٍ، واعلم أنَّ الله قد توكلَ لهذا الأمرِ بما لا خلف له ، فاحذرْ أن يصرفَهُ عنك ، ويستبدل بكم غيرَكم .

وفي هذه الوصيةِ نلمسُ حرصَ عمر ﷺ على التزامِ جندِه بتقوى اللهِ التي هي أقوى سلاحٍ وأمضاه ، وخيرُ زادٍ يـــتزودُ به المؤمنُ في رحلة الجهادِ الطويلةِ والشاقةِ ، ﴿وتزودوا فــإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ﴾.

وفيها دليلٌ على حرصِهِ لمعرفةِ رجالِهِ فـــــرداً ...فـــرداً ، واطلاعهِ على احوالهم وتحركاهم ، والإحاطةِ التامـــةِ بكـــلِ أعمالهم وتصرفاهم ، حتى يبدو وكأنه مقيمٌ معهم ، ومطلـــعٌ على جميعِ أمورهمِ .

هكذا كان حرصُ عمرَ على سلامةِ جندِه .

وهكذا كان أسلوبه في اختيارِ القادة والأمراءِ ، أسلوبٌ يجمعُ أقصى غاياتِ الدقةِ والحذرِ والأناة .

ومعاييرُهُ في اختيارِ الرجالِ مرهفةٌ ودقيقةُ وبصيرةٌ أكثر ما يكونُ البصرُ حدةً ونفاذاً وتلك مزيةٌ جعلتْهُ لا يخطئ في اختيار معاونيه في تحملِ أعباءِ الحكمِ في الحربِ أو في السلمِ.

هذه المزيةُ التي لم يسبقْ للتاريخ أن كتب مثلها لرجلِ دولةٍ ناجحٍ موفقٍ مثلِ عمرَ ﷺ عنه ، بل إنها أروعُ ما سجله التاريخُ في صفحاته للقادة كافةً ، وللأمم قاطبةً ، وسيبقى نموذجاً حياً ، ومثلاً صادقاً لكل زعيم أو حاكمٍ ينشدُ الخيرَ ، ويقيمُ العدلَ ، ويحرصُ على سلامةِ الأمةِ ، ويسهرُ على راحةِ أبنائها ، ويوفرُ لهمُ ، الأمن والأمانَ والراحةَ والاطمئنانَ ، ومَنْ يكونُ أهلاً لهذا وجديراً به غيرُ عمرَ ... .؟؟

أمنت لما أقمتَ العدل بينهم فنمت فيهم قرير العين هانيها

مراسلات بين سعدٍ وعمر :

كتب سعدٌ يردُّ على عمرَ رضي الله عنهما ، وهو يصفُ له البلادَ التي نزلها، والأرض التي وطِئَها ، وبالغ له في الوصفِ حتى وكأنه جالسٌ معه يشاهدها وينظرُ إليها .

ووصف له الحالة العسكريةَ للفرسِ وتحركاتهم ، والتغيراتِ الحاصلةَ في صفوفِ جيشهم ، فهم جرَّدوا رستمَ وأمثالَهُ من خيرةِ قادتِهم لحربِ المسلمين، فقال : وأنهم يطلبوننا ، ونحن نطلبهم ، وأمرُ الله بعدُ ماضٍ ، وقضاؤه مسلَّمٌ إلى ما قدَّرَ لنا وعلينا ، فنسألُ اللهَ خيرَ القضاءِ ، وخيرَ القدرِ في عافيةٍ .

فكتب إليه عمرُ يقولُ :

قد جاءني كتابُك وفهمتُهُ ، فإذا لقيتَ عدوَّكَ ومنحكَ اللهُ أدبارهم، فإنه قد أُلقي في رُوعي أنكم ستهزمونهم ، فلا تشكَّنَّ في ذلك .فإذا هزمتَهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم

عليهم المدائنَ، فإنه خرابها إن شاء اللهُ تعالى .

وختم كتبَهُ بالدعاءِ له ولجندِه بالنصرِ والظفرِ ، والفتحِ والسلامةِ . فلربّ قائلٍ يقولُ : إن عمرَ كان مركزياً في قيادته، فهو بهذا يشُلُّ أيديَ قادتهِ ، ويوهنُ من قوةِ جنودهِ .

نقولُ : إن هذا وهمٌ ليس له من الحقِ نصيبٌ ، إنَّ عمرَ رجلُ سياسةٍ، كما أنه قائدٌ عسكريٌّ فذٌّ من الطرازِ الأولِ .

إنه يضعُ لقوادهِ وأمراءِ جندهِ الخطط العامةَ للقتالِ ، ويتركُ لهمُ التفاصيلَ بعد أن يبذلَ قصارى جهدِهِ في اختيارهم لتحملِ مسؤولياتهم بجدارةٍ وقوةٍ وإيمانٍ ، والاعتماد على أنفسهم في سيرِ المعركةِ وتحديدِ مصيرها .

يقول المرحومُ العقادُ :

(وهذه السياسةُ هي التي جرى عليها عمرُ في جميعِ بعوثِهِ وغزواتِهِ وسراياه ، وهي السياسةُ التي لا يستطيع الحاكمُ أن يجري على غيرها في حربٍ قديمةٍ أو حديثةٍ).

وقد جرى عليها فجعلته كاسبَ النصر كما يكسبهُ

القائدُ في الميدانِ ، وجعلتْ بطلَ الفرسِ (رستم) المشـهور في التواريخِ والأساطير يقولُ : (إنَّ عمرَ هو هازمُهُ في الميـدانِ) (وإنه هو الذي يكلمُ الكلابَ فيعلُمُهمُ العقلَ ... أكلَ كبدي، أحرق اللهُ كبدَهُ)[1] .

التفاؤل بالنصرِ :

بينما سعدٌ ﷺ ماضٍ في طريقهِ إلى القادسيةِ إذ اعترضَـهُ جيشٌ للفرسِ في موضعٍ يقال له : (العذيب) بقيادة شـيرزاد ابنِ اراذويه فاشتبك المسلمون معهم في معركةٍ قويةٍ انتـهتْ بهزيمةِ الفرسِ بعد أن قُتِلَ منهم عددٌ كبيرٌ ، وغنم المسـلمون مغانمَ كثيرةً وزعها سعدٌ على المقاتلين .

وبنصرِ المسلمين في هذه المعركـةِ استبشـروا خـيراً ، وتفاءلوا بالنصر، واعتبروا هذه المعركةَ بدايةً لمعركةٍ قويـةٍ فاصلةٍ إن شاء اللهُ تعالى ، ومقدمةً سارَّةً للقضاءِ التامِ علـى

---

[1] عبقرية عمر للعقاد .

النفوذِ الفارسي في العراقِ ، ونشرِ لواءِ الإسلامِ فوق ربوعِ أرضِهِ .

استعداد المسلمين عسكرياً :

بلغ سعدٌ القادسيةَ فأقام حولها شهراً لم يرفيه أحداً من الفرسِ ، فأخذ يبثُّ سراياه حولها ليطلع على طبيعةِ أرضِها ، وليأخذَ دراسةً كاملةً عنها لوضعِ خطتِه الحربيةِ من جهةٍ ، ولاستعراضِ العضلاتِ ، وإظهارِ قوةِ المسلمين وتيقظهم من جهةٍ أخرى .

هذا ... وجنودُ المسلمين يذهبون في كلِ جهةٍ ، ويعودون بالطعام من كلِ مكانٍ ويترددون هنا وهناك دون أن يعترضَ طريقهم أحدٌ ، الأمرُ الذي أقلق الفرسَ ، وأثار غضبهم ، وجعلهم حيارى من أمرهم ، فثاروا في كلِ جهةٍ ، ثم ذهبوا إلى ملكهم يزدجردَ يشكون إليه ما يلقون من المسلمين وقالوا له: إن لم تنجدونا أعطينا المسلمين ما بأيدينا وسلّمنا إليهم الحصونَ .

وبالمقابلِ كان سعدٌ ﷺ يرقبُ أخبارَ الفرسِ ، ويرصدُ تحركاتهم ، فعلم أنهم قد سَيَّروا له جيشاً جراراً قوامهُ مائةٌ وعشرون ألفاً ، يتبعهُ ثمانون ألفاً آخرون ، يتقدمهم ثلاثون فيلاً مدرباً تدريباً خطيراً على القتال وإخافةِ الخيولِ .

فلما علم سعدٌ بعددِ جيشِ الفرسِ وتقدمهِ نحوهُ تحت قيادةِ رستمَ كتب إلى عمر يخبرُه بالأمر كما طلب منه عمرُ أن يطلِعَهُ على كلِ ما يجدُ من الأمورِ وكأنه معهم يبصرُ كلَ ما يحدثُ .

فكتب إليه عمرُ يقولُ :

لا يكرُبَنَّكَ ما ياتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن باللهِ وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهلِ النظرِ والرأي والجلدِ يدعونه ، فإنَّ اللهَ جاعلٌ دعاءَهم توهيناً لهم، وفلجاً[1] عليهم، واكتب إليَّ في كلِ يومٍ .

---

[1] الفلْجُ : الشق ، وفلجت الشيء : شققتهُ فلجين ، أي شقين ، والفلجُ هنا : الظفر .

تقدمُ الجيشِ الفارسي :

وتقدم رستمُ بجيوشهِ الجرارةِ ، وعسكرَ بساباطَ ، وعبَّأها على النحو التالي :

جعل على المقدمةِ وهي أربعون الفاً قائداً عنيداً يقالُ لـــه الجالينوس .

وعلى الميمنةِ الهرمزانَ .

وعلى الميسرةِ مهرانَ بنَ بهرامَ ، وذلك ستون ألفاً موزعةً على الميمنةِ والميسرةِ .

وعلى المشاةِ البندرانَ في عشرين ألفاً .وعلـــى مقدمـــةِ الجيشِ ثلاثون فيلاً ، منها فيلٌ ابيضُ كان لســـابورَ ، وهـــو أعظمها وأشدها خطراً ، والفيلةُ جميعها تألفه، وكلُها كـــانت مدربةً تدريباً خطيراً ورهيباً .

وفد المسلمين في مجلسِ رستم :

هذا ما كان من الفرسِ ، أما المسلمون فقدِ اختارَ منهم سعدُ ابنُ أبي وقاصٍ عدداً من القوادِ الشجعانِ ، والفرسانِ الميامين

والفصحاءِ المتكلمين ليذهبوا إلى رستم للمفاوضةِ كما أمر بذلك عمرُ ﷺ ، وهم : النعمان بنُ مُقَرِن ، وفراتُ بنُ حيانَ ، وحنظلةُ بنُ الربيعِ التميميُّ ، وعطاردُ بنُ حاجبٍ ، والأشعثُ بنُ قيسٍ ، والمغيرةُ بنُ شعبةَ، وعمروُ بنُ معديكربَ . فتوجهَ هؤلاءِ السادةُ النجباءُ ، وجميعُهم من الفصحاءِ المتكلمين ، والفرسانِ المعدودين . فمنهم مَنْ عُرِفَ بالشعرِ وفنونِهِ ، ومنهم مَنِ اشتُهِرَ بفصاحتِهِ وبيانِهِ ، ومنهم مَنْ عُلِمَ بذكائِه ودهائِهِ . وقد توجَه هؤلاءِ السادةُ إلى خيمةِ رستمَ يدعونه قبل كلِ شيءٍ إلى الإسلامِ ، وعبادةِ اللهِ عزّ وجل لعله يتذكرُ أو يخشى . فلمّا دخلوا عليه قال لهم بتكبرٍ وغطرسةٍ : ماأقدَمَكم . . . ؟ قالوا : جئنا لموعودِ اللهِ إيانا، وهو أخذُ بلادِكم، وسبُي نسائِكم وأبنائِكم، وأخذُ أموالِكم، فنحن على يقينٍ من ذلك . فلما سمع رستمُ هذه اللهجةَ القاسيةَ التي تحملُ التهديدَ والتحكمَ ، وعدمَ الاكتراثِ به وبجيشِهِ الجرارِ، دهشَ وذهلَ، وعجب من أمرهم وجرأتِهم

ولاسيما وأنه كان منجماً، وكان قد رأى في منامِه كأنَ ملكاً نزل من السماءِ فختم على سلاحِ الفرسِ جميعاً ودفعـــهُ إلى رسولِ الله ﷺ، فدفعه رسول الله إلى عمرَ. الأمـــرَ الــذي أقلقهُ، وقذفَ الرعبَ في قلبهِ، وجعله يحس أن نهايتهُ على يــد هؤلاءِ العربِ المسلمين. فأخذ يسوفُ ويماطلُ، واستمر علــى ذلك أربعةَ أشهرِ على أملِ أن يمـــلَ المســلمون ويســأموا الانتظارَ فيرجعوا إلى بلادهِم، ولكنَ ذلـــك لم يكـــنْ يزيــدُ المسلمين إلا صبراً وثباتاً وإصراراً على القتالِ مهما ســـوّفَ الفرسُ وماطلوا. ولذلك جعل المسلمون يتحرشـــون بهـــم ويغيرون عليهمُ الإغارةَ تلو الإغارة ثم أرسل سعدٌ سريةً كان بين أفرادِها طليحةُ الأسديُ الذي ادعى النبوةَ، فقاتله خــالدٌ حتى رجع إلى الإسلام فتقدَم أفرادُ تلك السريةِ من جيـــشِ الفرسِ، فاخترق طلَيحةُ صفوفهَم، وتخطَـــى الآلافَ، وقتـــل عدداً كبيراً من فرسِانهم، وأسَر واحداً منهم، وجاء بـــه إلى سعدٍ الذي سأله عنِ الفرسِ. فجعل الأسيرُ يصفُ شـــجاعةَ

طُليَحةَ وبسالتَه، وكيف اقتحم صفوفهم ونزل عليهم كالصاعقِة.فقال له سعد: دعْنا من هذا وأخبرْنا عن رستمَ. فقال: هو في مائةٍ وعشرين ألفاً، ويتبعهاً مثلُها. ثم لم يلبثِ الرجلُ أن أسلم من فورهِ رحمه الله تعالى.

رسُل سعدٍ عند رستم

أولاً: المغيرة بنُ شعبة ﷺ :

على أثرِ الإغارةِ الجريئةِ والسريعةِ التي قام بها المسلمون، بعث رستم إلى سعدٍ يطلبُ منه أن يبعثَ إليه رجلاً عاقلاً عالماً ليتفاوضَ معه في شأنِ الحرب، وليفهَم منه سببَ مجيئهم فلعلَّ الأمراءَ الذينِ اجتمع بهم كان بهم شيء من الحدة والتسرعِ. فبعث إليه المغيرةَ بنَ شعبةَ ﷺ ، وكان المغيرةُ معروفاً بالذكاءِ والدهاءِ، ورجاحةِ العقلِ، وحلاوةِ الحديثِ، وجمالِ المنطقِ، وفصاحةِ اللسانِ وحسنِ البيان. كما كان أيضاً معدوداً من دهاة العربِ المشهورين. فلما دخل المغيرةُ ﷺ على رستمَ دار بينهما الحديثُ التالي: قال رستم: إنكم جيرانُنا، وكنا نحسُن إليكم، ونكفُ الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادِكم، ولن نمنعَ تجارتَكم من الدخولِ إلى بلادِنا. فاجابه المغيرةُ قائلاً: إنا ليس طلبُنا الدنِيا، وإنما هي

هُمنا، وطلبُنا الآخرةُ. وقد بعث اللهُ إلينا رسولاً قال لـــه: إني قد سلطتُ هذه الطائفةَ علي مَنْ لم يدنْ بديني. فأنا منتقْم بهم منهم، وأجعلُ لهم الغلبةُ ماداموا مُقْرِين به، وهو دينُ الحـــقِ، لايرغبُ عنه أحد إلا ذلَ ولايعتصمُ به إلا عزَ. فقــــال لـــه رستم: فما هو ؟ قال: أما عمودهُ الذي لايصلحُ شيء منه إلا به، فشهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، والإ قرارُ بما جاءَ من عندِ الله. فقال رستمُ: ما أحسنَ هذا... وأيُ شيء أيضاً؟ قال: والناسُ بنو آدمَ، فهم إخـــوةُ لأبٍ وأمٍ. قـــال: وحسنٌ أيضاً. ثم قال رستمُ: أرأيتْ إنْ دخلنـــا في دينكـــم أترجعون عن بلادنا. . .؟ قال: إيْ والله، ثم لانقَربُ بلادَكـم إلا في تجارةٍ أو حاجةٍ. قال: وحَسنٌ أيضاً. ثم أعلن رســـتمُ إنهاءْ الجلسةِ، ... وانقطع الحديثُ، ولم يصلا إلى نتيجةٍ، فلمـا غادر المغيرةُ المجلسَ أخذ رســتمُ يبــدي إعجابــهُ بالمغــيرةُ وبكلامهِ، وراح يذاكرُ قومهُ في الإسلام وكلامِ المغيرةِ عنـــه، فرفضوه، وأصروا علـــى كفرهـــمِ وعنـــادهمِ، وتمســـكوا

بمجوسيتهم.

ثانياً: ربعيُ بن عامرٍ ﷺ:

ثم بعث رستمُ إلى سعدٍ يطلبُ منه رسولاً آخرَ، فاستجابَ له وأرسل إليه ربعيُ بنَ عامرٍ وكان ذكياً فطناً لايقلُ ذكاءً وفطانةً ومرونةً في الحوارِ والمفاوضةِ كما كان متحدثاً جريئاً، وفارساً مقداماً لايخافُ رستمَ ومايحيطُ به من فرسانٍ، ولايخشى في اللهِ لومةَ لائمٍ. فلما قدمَ ربعيُ بنُ عامرٍ استأذنَ بالدخولِ على رستمَ، فأذنَ له. فدخل وهو يمشي على السجادِ والحريرِ.والنمارقِ والديباجِ حتى انتهى إلى رستمَ، وكان يجلسُ على سريرٍ من ذهبٍ، وعليه تاجهُ المرصعُ بالذهبِ واللآلىءِ والياقوتِ، وحوله الخدم والجواري يقومون بين يديه، وفي أيديهمُ المراوحُ يحركونها فوق رأسهِ يذبون عنه الذباب. وكان ربعيُ بنُ عامرٍ ﷺ يرتدي ثياباً صفيقةً وعليها درعٌ ويحملُ بيدهِ سيفهُ وترسهُ، وقلنسوتهُ على رأسهِ شأنهُ شأنُ مَنْ هو مستعدٌ لدخولِ معركةٍ، فقالوا

له: ضع سلاحكَ. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعتُ. فأشار إليهم رستمُ أن دعوه، ثم قال لهمُ: ائذنوا له.

فأقبل ربعيُ يتوكأُ على رمحِهِ، ويضربُ به فوق النمارقِ حتى خرقها، فقالوا له: ما جاء بكم. . . ؟؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرجَ العبادَ مِنْ عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ. فأرسلنا بدينهِ إلى خلقهِ لندعَوهم إليه، فمن قبلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَنْ أبى قاتلناه حتى نفضيَ إلى موعودِ الله. قالوا: وما موعودُ الله . . . ؟ قال: الجنةُ لمن مات على قتالِ مَنْ أبى. والظفرُ لمن بقيَ. فقال رستمُ: قد سمعتُ مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظرَ فيه وتنظروا. . . ؟ قال: نعمَ كم أحَبُّ إليكم، يوماً أو يومين ... ؟ قال رستمُ: لا، حتى نكاتبَ أهلَ رأينا ورؤساءَ قومِنا. فقال ربعيُ: ماسَنَّ رسولُ الله ﷺ أنْ نؤخرَ الأعداءَ عند اللقاءِ أكثرَ من ثلاثٍ،

فانظرْ في أمركَ وأمرهم واختَرْ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجـــلِ

فدهشَ رستم من جرأتهِ وصراحتهِ فقال: أسيدهمُ أنـــتَ . .؟

قال: لا، ولكنْ المسلمين كالجسدِ الواحدِ يجيرُ أدناهم علـــى أعلاهم. فنظر رستمُ إلى أصحابهِ وقال لهم وقد بهرهُ كـــلامُ هذا الرجلِ المسلمِ، وعظمةُ الدينِ الذي يعتنقهُ ويتكلم باسمهِ: هل رأيتم قطُ أعز وأرجحَ من كلامِ هذا الرجلِ. . .؟ فخاف قومهُ أن يكونَ رستمُ قد تأثر بالإسلامِ، وفكر في الدخـــول فيه، فقالوا: معاذَ الله أن تميلَ إلى شيءٍ من هذا وتدعَ دينـــكَ إلى هذا الكلبِ، أما ترى إلى ثيابـــهِ.!!؟؟ فقـــال: ويلكـــم، لاتنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلامِ والســـيرةِ، إن العربَ يستخفونَ بالثياب والمأكلِ، ويصونون الأحسابَ.

ومرةً أخرى انفض المجلسُ، ولم يصلِ المتفاوضون إلى نتيجـــةٍ تذكرُ، ولم يتفقِ الفرسُ مع قائدهمِ رستمَ على أمـــرٍ ســـوى إصرارهمِ على مجوسيتهِم، واستهتارهم بالعربِ المســـلمين، وازدراءِ الثيابِ والمظهرِ، وعدمِ النظرِ إلى العقيدةِ والمضمونِ.

ثالثاً : حذيفةُ بنُ محصنٍ ﷺ :

وفي اليوم الثاني بعث رستمُ إلى سعدٍ يطلبُ منه رجلاً آخـــرَ للمفاوضةِ. فبعث إليه حذيفةَ بنَ محصنٍ ﷺ الذي لم يكـــنْ أقلَ شأناً من سابقَيه لا من حيثُ الذكاءُ وطلاقةُ اللسانِ، ولا منْ حيثُ الجرأةُ والشجاعةُ والصراحـــةُ وحســن البيـــانِ. والمسلمون جميعاً كما وصفهمُ النبيُ ﷺ : ﴿ تتكافأُ دماؤُهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم ﴾ ولقـــد تكلمَ حذيفةُ ﷺ بنحو ماتكلم به ربعيُ بنُ عامرٍ فلم يصـــلُ مع رستمَ إلى نتيجةٍ.

رابعاً: المغيرةُ بنُ شعبةَ ﷺ :

ومرة أخرى أرسل رستمُ يطلبُ مفاوضاً آخرَ، فجـــاءه المغيرةُ بنُ شعبةَ ﷺ الذي سحر رستمَ ومَنْ معه مِنَ القـــادةِ والمستشارين بكلامهِ، وحسنِ بيانهِ، وفصاحتهِ وجرأتـــهِ، ولم يزدْ عن معنى كلامهِ الأولِ، أو كلامِ ســـابقيهِ، ولم يضـــفْ

شرطاً إلى الشروطِ المتقدمةِ. فلما رأى رستمُ أن أسلوبَ المفاوضين المسلمين واحدٌ، وأن شروطَهَمْ متفقةٌ، لم يزدْ أحدُهم على الآخرِ شرطاً واحداً، ولم تختلفْ لهجةُ أحدهِم عن الآخرِ في الحدةِ والصراحةِ، والتهكمِ والتهديدِ، والإصرارِ على القتالِ إنْ لم يذعنْ لمطالبهم. ويخضعْ لشروطِهم، ويدخلْ هو وقومهُ في الإسلامِ، أو يؤدُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون. فقال رستمُ: إنما مثلكم في دخولكم أرضناَ كمثلِ الذبابِ رأى العسلَ، فقال: مَنْ يوصِلني إليه وله درهمان. .؟ فلما سقط عليه غرِقَ فيه، فجعل يطلبُ الخلاصَ فلا يجدهُ، وجعل يقولُ: مَنْ يخلصني وله أربعةُ دراهمَ. . . ؟ ومثلكمُ كمثلِ ثعلبٍ ضعيفٍ دخل جحراً في كرمٍ فلما رآهُ صاحبُ الكرمِ ضعيفاً رحمَهُ فتركهُ، فلما سَمنَ أفسَد شيئاً كثيراً، فجاء بجيشهِ واستعانَ عليه بغلمانهِ فذهبَ ليخرجَ فلم يستطعْ لسمنهِ، فضربهُ حتى قتلهُ. فهكذا تخرجون من بلادنا. ثم استشاط غضباً، وأخذ يُرغي ويزبدُ،

ويهددُ ويتوعدُ، وأقسم بالشمسِ وقال: لأقتلنكمُ غداً.

وبهدوء ووداعةٍ . وسكينةٍ ورباطةِ جأشٍ أجابه المغـــيرةُ ابن شعبةَ إجابةَ الواثقِ من نفسهِ، المستهينِ بعدوه: ســـــتعلمُ. فقال رستمُ مستهزئاً: قد أمرتُ لكم بكســـوةٍ. ولأمـــيركم بكسوةٍ وألف دينارٍ، ومركوبٍ، وتنصرفون عَنـــا. فأجابـــه المغيرة: أبعدَ أن أوهنَا ملككم، وضعفنا عزمَكم، ولنا مـدةٌ في بلادِكم ونأخذُ منكمُ الجزيةَ عن يــــدٍ وأنتـــم صـــاغرون، وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم. فاشتدَ غضبُ رســـتمَ، وثار ثائره، وطار طائرهُ، وراح يتوعـــدُ المســـلمين بـــالقتلِ والاستئصالِ. وفجأةً هدأتْ ثورتهُ، وسكنتْ حدتهُ، وعـــاد إليه الهدوءُ والاتزانُ، ورجع إلى أسلوبِ التملصِ والمماطلـــةِ. وراح يسوفُ ويطلبُ الرسلَ من سعدٍ وكلما جاءه رســـولٌ خاطبهُ بلهجةِ المتهكمِ المستهينِ بعدوه دون أن يخشاه وهو بين جنودهِ وفرسانهِ. وهذا شأنُ المسلمِ عزيـــزٌ لايـــذلُ، قـــويٌ لايضعفُ، شجاعُ لايجبنُ، لايخشى أحداً إلا الله لإيمانهِ المطلـقِ

أن اللهَ وحدهُ مالكُ أمره وإليه المصيرُ، وأن أحـــداً لايملـــكُ لنفسهِ ضراً ولا نفعاً فضلاً عن أنْ يملكَ ذلك لغيره، وليقينـــه الثابتِ أنه إنْ قتِلَ فلن يذهب هباءً منثوراً ولعلمِهِ أنَ مصـــيره حتماً إلى الجنةِ ﴿مع الذين أنعَمْ اللهُ عليـــــهم مـــن النبيـــين والصَديقينْ والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئكَ رفيقـاً﴾[1]، فلِمَ الخوف إذن . . .؟ ولِمَ الجبنُ والجزعُ. . ؟ ولم الـــترددُ والتراجعُ...؟

[1] الآية ٦٩ من سورة النساء .

اللقـــاءُ

والتقى الجيشان في القادسيةِ، ونظر الفرسُ إلى كثرتِـــهمْ وقلةِ عددِ المسلمين، فأخذتُهمُ العزةُ بالإثمِ، وقالوا للمســلمين بكبرٍ وغطرسةٍ : لايدَ لكم، ولاقــوةَ ولاســلاحَ ، ماجــاء بكم...؟ ارجعوا. وأخذوا يضحكون من سهامهمِ. ويسخرون منها، ويشبهونها بالمغازلِ. فقال لهمُ المسلمون:مانحن براجعين. فلما رأوا إصرارَ المسلمين على القتالِ، قالوا لهمُ: ابعثوا لنــا رجلاً من عقلائِكم يبينْ لنا ما جاء بكم. فقام المغــيرةُ بــنُ شعبةَ ﷺ فقال: أنا وتوجهَ نحو الفرسِ فجلس مــع رســتمَ على سريرهِ. فاحتجوا عليه، وصاحوا به. فقال المغــيرةُ: إن هذا لم يزدْني رفعةً، ولم ينقصْ صاحَبكمْ.

فقال رستم: صدق، ثم سأله:ماجاء بكم...؟ فقال المغيرةُ: إنا كنا قوماً في شرٍ وضلالةٍ، فبعث اللهُ إلينا نبياً، فـــهدانا اللهُ به، ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقناَ حبةٌ تنبتُ في هـــذا

البلدِ، فلما أكلناها أطعمْنا أهلينا قالوا: لاصبرَ لنـــا عنــها أنزلونا هذه الأرضَ حتى نأكلَ من هذه الحبةِ . فقال رستمُ: إذن نقتلكُمُ. قال المغيرةُ: فإنْ قتلتمونا دخلَنْـــا الجنـــةَ، وإن قتلناكم دخلتمُ النارَ، وأديتُمُ الجزية.

ولم يكادوا يسمعون كلمةَ الجزية حتى صاحوا من كـــل جهةٍ محتجين: لاصلحَ بيننا وبينكم، وأصروا على كفرِهــــم وعبادتِهمُ النارَ.

فقال المغيرةُ: تعبرون إلينا أو نعبرُ إليكمْ...؟ فقال رستمُ: بل نعبر إليكم، فأخذ المسلمون حيطتَهم، وتــأهبوا للقــاءِ عدوهمِ، وشحذوا كلَ إمكاناتهمِ وطاقاتهمِ استعداداً للمعركةِ الفاصلةِ. فلما عبر إليهم الفرسُ حملوا عليهم حملـــةَ رجــلٍ واحدٍ، وشدوا عليهم شدةً قوية حتى هزموهـــم بـــإذنِ الله. وباتوا فترةً من غيرِ قتالٍ، فعاد سعدٌ مرةً أخرى للمفاوضـــةِ، لعلَ رستمَ يتذكرَ أو يخشى، ويذعنُ للصلحِ.

المسلمون في مجلسِ كسرى

رأى سعدٌ ﷺ أن المفاوضاتِ مع رستم لم تجدِ نفعـــاً، ولم يصلْ رسلهُ مع رستمَ إلى نتيجةٍ، فبعث نفراً من أصحابـــهِ إلى كسرى ملك الفرسِ لعله يكونُ ألينَ من رستمَ، فيصلوا معـه إلى الصلحِ، فيتجنبَ، الفريقان تبعات الحـــربِ، وأهوالهـــا ونتائجها السيئةَ. فذهب وفد المســـلمين فاســـتأذنوا علـــى كسرى فأذنَ لهم، وخرج أهلُ البلدِ ينظـــرون إلى العـــربِ المسلمين القادمين إليهم، فعجبوا من هيئاتهم وأشكالهمِ، وقـد جعلوا أرديتهم على عواتقهم، وحملوا الســـياطَ بأيديـــهم، وركبوا خيولهمُ الضعيفةَ، فعجبوا منهم، وراحوا يتســـاءلون: كيف لمثل هؤلاءِ العـــربِ يدخلـــون بلادهـــم، ويقـــهرون جيوشهم و ينتصرون عليهم مع قلةِ عددهـــمِ...!!؟؟ ولمـــا دخلوا على كسرى يزدجردَ استقبلهم وأجلسهم بين يديـــه، وكان متكبراً ومتعجرفاً فجعـــل يســـألهم عـــن ملابســـهمِ

وأرديتهم[1] ونعالهم والسياط التي يحملونها، وكأنه ازدراهم واحتقرهم، ونظر إلى ظاهرِ أمرهمِ، ولم ينظرْ إلى الحقيقةِ والجوهرِ ثم قال لهم : ما الذي أقدَمكم هذه البلادَ...؟ أظننتمَ أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا...!!؟. فقال له النعمانُ بنُ مقرنٍ: إن الله رحمنا فأرسلَ إلينا رسولاً يدلنا على الخيرِ ويأمرنا به، ويعرفنا الشرَ وينهانا عنه، وَوَعدنا على إجابتهِ خير الدنيا والآخرةِ، فلم يدعُ إلى ذلك قبيلةً إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربهُ، وفرقةُ تباعدهُ، ولا يدخلُ معه في دينهِ إلا الخواصُ، فمكثَ كذلك ماشاء اللهُ أن يمكثَ. ثم أمرَ أن ينهدَ إلى مَنْ خالفهُ من العربِ ويبدأ بهم، ففعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكروه عليه فاغتبط[2]، وطائعٍ إياه فلزداد فعرفنا جميعاً فضلَ ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوةِ والضيقِ. وأمَرنا أن نبدأَ بمن يلينا من الأممِ فندعوهم إلى الإنصافِ فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دينُ الإسلامِ، حَسنَ

[1] الأردية : جمع رداء .

[2] الغبطة : ضد الحسد .

الحسنَ، وقبحَ القبيح كلهُ، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرِ هو أهونُ مِنْ آخر شرٍ منه الجزاء[1]، فإنْ أبيتم فالمناجزةُ، وإنْ أجبتم إلى ديننا خلَفنا فيكم كتابَ اللهِ، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامِهِ ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجزيةِ، قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم. فقال الملكُ يزد جرد مغضباً: إني لا أعلمُ في الأرضِ أمةً كانتْ أشقى ولاأقلَ عدداً، ولا أسوأ ذاتِ بينٍ منكم، قد كنا نوكلُ بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، ولاتغزوكم فارسُ، ولاتطمعون أنْ تقوموا لهم، فإنْ كان عددكم كثر فلا يغرَنكمْ مِنا، وإنْ كان الجهدُ دعاكم فرَضنا لكم قوتاً إلى خصبكمِ[2]، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم،وملكنا عليكم ملكاً يرفقُ بكم. وسكت يزدجردُ وسكت القومُ. ثم قام المغيرةُ بنُ شعبةً فقال: أيها الملكُ، إنَ هؤلاءِ رؤوسُ العربِ ووجوههمُ، وهم أشرافٌ يستحيون مِنَ الأشرافِ، ويعظمُ حقوقَ الأشرافِ

---

[1] المراد : الجزية .

[2] الخصب : الخير والرزق والسخاء .

الأشرافُ، وليس كلُ ماأرسلوا له جمعــوه لــك، ولا كــلُ ماتكلمت به أجابوك عليه. وتابعَ قائلاً: إنك قد وصفتنــــاَ صفةً لم تكنْ بها عالماً، فأما ماذكرتَ مِنْ سوءِ الحالِ، فما كان أسوأحالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوعَ، كنا نــأكلُ الخنافسَ والجعلان والعقاربَ والحياتِ، ونرى ذلك طعامَنــا. وأما المنازلُ فإنما هي ظهرُ الأرضِ، ولانلبسُ إلا ماغزلنا مــن أوبارِ الأبلِ، وأشعارِ الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضــاً وأن يبغي بعضُنا على بعضٍ،وإنْ كان أحدنا ليدفنُ ابنتهُ وهي حيــةُ كراهيةٌ أنْ تأكلَ من طعامهِ، وكانتْ حالنا قبلَ اليومِ علــى ماذكرتُ لك. فبعث اللهُ إلينا رجلاً معروفاً نعرفُ نســبه، ونعرفُ وجههُ ومولدهُ، فأرضهُ خيرُ أرضنا، وحســبهُ خــيرُ أحسابنا. وبيتهُ خيرُ بيوتنا، وقبيلتهُ خيرُ قبائلنا، وهو نفسُــهُ كان خيرَنا في الحالِ التي كان فيها أصدقنا وأحلمَناَ، فدعانــا إلى أمرِ اللهِ، فلم يجْبهُ أحدٌ. أولُ تربٍ[1] كان له الخليفةُ مــن

---

[1] الترب : المماثل في السن .

بعدِه، فقال وقلنا، وصدَّقَ وكذَّبنا. وزاد ونقصنا، فلم يقـــلْ شيئاً إلا كان. فقذف اللهُ في قلوبنا التصديقَ لـــه واتّباعــهُ، فصار فيما بيننا وبين ربِ العالمين، فما قال لنا فهو قــولُ الله، وما أمرنا فهو أمرُ الله . فقال لنا: إن ربَكم يقــول: أنــا اللهُ وحدي لاشريك لي، كنتُ إذ لم يكنْ شيء وكل شيء هالكٌ إلا وجهي، وأنا خلقتُ كل شيء، وإليَّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثتُ إليكم هذا الرجلَ لأدلكـــم علـــى السبيلِ التي أنجيكم بها بعد الموتِ من عـــذابي، ولأحلكـــم داري، دار السلام، فنشهدً عليه أنه جاء بالحقِ مـــن عنـــدِ الحقِ، وقال: مَنْ تابعكم على هذا فلَـــه مـــالكم، وعليـــه ماعليكم، ومَنْ أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعـــوه[1] ممـــا تمنعون منه أنفسكم ، ومَنْ أبى فقاتلوهُ فأنا الحكمُ بينكــم، فمنَ قُتل منكم أدخله جنتي، ومنْ بقي منكم أعقبتُه النصـــرَ على منْ ناوأهُ. فاخترْ إن شئت الجزية وأنـــت صـــاغر، وإنْ

---

[1] المنعة : الحماية .

شئت فالسيفُ، أو تسلمَ فتنجّيَ نفسكَ. فغضب يزدجردُ من كلامهِ الذي يحملُ التهديد الواضحَ، وهو في قصــــرهِ وبـــينَ حراسهِ وجنوده، دون أن يخشى بطشهم، فقـــال يزدجـــردُ: أتستقبلني بمثلِ هذا ...؟ فقال: مااستقبلتُ إلا من كلمـــــني، ولو كلمني غيركَ لم أستقبلكَ به، فقال: لولا أن الرســـــلَ لا تقتلُ لقتلتكم، لاشيء لكم عندي. ثم نظر إلى بعضِ جلســـائهِ فقال: ائتوني بوقرٍ[1] من ترابٍ فاحملوه على أشرف هـؤلاءِ، ثم سوقوهُ حتى يخرجَ من أبياتِ المدائنِ. ثم قالَ للمســـــلمينِ: ارجعوا إلى صاحبكمِ فأعلموهُ أني مرسلٌ إليه رســـتم حـــتى يدفنهُ وجنده في خندقِ القادسيةِ، وينكلِ بكم من بعـــــدُ. ثم أوردهُ بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكمِ بأشدِ مما نالكم مـــن سابور. فلما جاؤوه بالترابِ قال: مَنْ أشرفكم...؟ فســـكت القوم فقام عاصمُ بنُ عمروٍ فقال: أنا أشرفهم، أنـــا ســـيدُ هؤلاءِ فحمّلنيهِ[2] قال: أكذلك...؟ قالوا: نعم فدفـــع إليـــه

---

[1] الوقر : الحمل الثقيل .

[2] حملينه : يريد حملني التراب ، ففي الكلمة فاعل ومفعولان .

الترابَ، فحمله عاصمٌ على عنقه فخرج به من القصرِ حتى أتى راحلته فحملهُ عليها وانطلق مسرعاً، فمر في طريقهِ بقديسٍ فقال له: بشروا الأمير بالظفرِ إن شاء الله تعالى.

ومضى عاصمٌ حتى دخل على سعدٍ فأخبرهُ الخبرَ. فقال سعدٌ: أبشروا، فقد واللهِ أعطانا اللهُ مقاليدَ ملكهِم، ففرح المسلمون بذلك، وتفاءلوا بالخيرِ والنصرِ، وفسروا دفع الترابِ إلى عاصمٍ الذي أوصلهُ إلى القائدِ سعدِ قبل **أن** يدركوه، بتسليمِ البلادِ للمسلمين.

مجيءُ رستمَ إلي يزدجردَ :

وكان رستمُ قد ذهب إلى كسرى يزد جردَ يسألهُ عنِ المسلمين، ومارأى من جرأتهِم وشجاعتهِم، وشدةِ فصاحتهِم، وسرعةِ أجوبتهم، فقال له الملكُ معصباً: إنهم جاؤوا يريدون أمراً يوشكُ أن يدركوه، وذكر له مايأمر به أشرفهم من حملِ الترابِ، وأنه استحمقهُ حين حملهُ الترابَ على عنقهِ. وقال

الملك: لقد حمل الترابَ وهو أشرفهم،ولو شاء اتقى ذلك بغيرِه وأنا لا أشعرُ، فقال له رستم وكان أعقل من الملكِ، وأكثر إدراكاً منه لهذه الأمور: إنه ليس بأحمق، وليس هو بأشرفهمِ، إنما أراد أن يفدي قومهُ بنفسهِ، ولكنهم ذهبوا بمفاتيحِ أرضنا فتنبّه الملك إلى المسألة التي بدت له كانها لغز غامض، فثار وغضب ، وأرسل رجلاً وراء المسلمين ليعيد التراب ، فهو كناية عن تسليم أرضهم للمسلمين، وقال له : إن أدركتهم فخذ التراب منهم، وردّه إلينا ، قد تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا.

فانطلقَ الرجل مسرعاً فلم يدركهمْ، لأنهم كانوا قد سبقوه إلى سعدٍ، وحرصوا على تسليمهِ إياه قبل وصولهمِ، وهم يعلمون ماذا يعني تسليمُ الترابِ، إنه يعني فتح المسلمينِ لبلادِ فارسِ، والسيطرةَ التامةَ على ترابها، وتمسكهم بذمامِ الأمورِ إن شاء اللهُ تعالى، ورجع الرجلُ الفارسيُ بخفيَ حُنين، فلا هو أدرك العربَ المسلمين، ولا هو أعاد ترابَ بلادهِ، بل

رجع فاشلاً بمهمتهِ، يائساً من تنفيذها، فغضب الفرسُ من ذلك غضباً شديداً، وأصيبوا باليأسِ والإحباط، وأسقطَ في أيديهم، وأيقنوا بفشلهم، وذهابِ ريحهِم، وزوالِ ملكهِم، واستهجنوا رأيَ الملكِ، واستخفوا بهِ، وتحققوا من ضعفهِ وعجزهِ، وعدم استطاعتهِ ضبطَ أمورِ الدولةِ، والسيطرةَ على زمامها.

وكان هذا من فضلِ الله ونعمته على المسلمين أنْ أيدهم بهذا النصرِ المعنوي، ودعمَ موقفهم، وأضعفَ موقفَ الفرسِ، وضرب قلوبَ بعضهمِ حتى سرى إليها الضعفُ والوهنِ، ليكون ذلك مقدمةً لفشلهمِ وهزيمتهم ﴿ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً﴾[1] ، ﴿ولينصرن الله مَنْ ينصرهُ إن الله لقويٌ عزيز﴾[2]

---

[1] الآية ٤٤ من سورة الانفال .

[2] الآية ٤٠ من سورة الحج .

ساعةُ الصفرِ :

نفدتْ جميع الوسائلِ التي من شأنها أن تحققَ الصلحَ بين المسلمينَ والفرسِ، وتجنبهم ويلاتِ الحربِ، وتحقن دماءهم، ولم تجدِ المباحثاتُ والمفاوضاتُ الكثيرةُ والمتعددةُ التي انتهتْ بزيارةِ وفدٍ من المسلمينَ لكسرى يزدجردَ، وإجراءِ مباحثاتِ الصلحِ، والدعوةِ الى الإسلامِ، فكانتِ النتائجُ جميعها واحدةً وهي الفشلُ، وتهديدُ كلٍ من الطرفينِ صاحبهُ بالقتالِ. فكان لابدَ من القتالِ. لقد كانت نيةُ المسلمين واضحةٌ ليس فيها غموض وكانوا ينشدونَ الصلحَ ويريدون السلمَ بشرطِ إسلامِ الفرسِ، أو أداءِ الجزيةِ، وهذا حقٌ مشروعٌ لهم، فإنه أمر الله تعالى يجبُ تنفيذهُ والقيامِ به كما يجبُ وكما أمر الله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين يلونكم مِنْ الكفارِ وليجدوا فيكم غلظةً ﴾[1] ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يحرّمون ما حرمَ اللهُ ورسولُهِ ولايدينون دينَ الحقِ مِنْ

---

[1] الآية ١٢٣ من سورة التوبة

الذين أوتوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾[1] بينما كان موقفُ الفرسِ يتسمُ بالغموضِ أحياناً، وبالتسويفِ والمماطلةِ أحياناً وبالتهديدِ والوعيدِ أحياناً، والقتلِ والإبادة أحياناً. والسخريةِ والاستهزاءِ، والتلميح والتصريحِ بإشعالِ نار الحربِ واستئصالِ المسلمين إلى ماهناك من كبرٍ وغرورٍ، وتعالٍ وغطرسةٍ أعمت قلوبهم، وصمتْ أذاهم، وأخذتْ بعقولهم، وأفقدهم صوابهم، وجعلتهم يصابون بالطيشِ والتهورِ ﴿ وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فصدهم عن السبيلِ فهم لايهتدون ﴾[2] لقد زينَ لهم الشيطانُ أعمالهم، وورّطهم في حرب ليستْ في صالحهم، ولسوف يتخلى عنهم، ويتركهم عرضةً لسيوفِ المسلمين تفتك بهم ، وتذيقهم مرارة القتل وألم التشرد وتكسر شوكتهم، وتقضي على غرورهم وغطرستهم، ﴿ كمثلِ الشيطانِ إذا قال للإنسانِ اكفرْ فلما كفرَ قال إني بريءٌ منك

[1] الآية ٢٩ من سورة التوبة .

[2] الآية ٢٤ من سورة النمل .

إني أخافُ اللهَ ربَ العالمينَ فكان عاقبتهما أنهمـا في النـارِ خالدينِ فيها وذلك جزاءُ الظالمين ﴾[1] ﴿ وإذ زيـن لهـمُ الشيطانُ أعمالهم وقال لاغالبَ لكمُ اليومَ من النـاسِ وإني جارٌ لكم فلما تراءتِ الفئتانِ نكص على عقبيـهِ وقـال إني بريءٌ منكم إني أرى مالاترون إني أخـافُ اللهَ واللهُ شـديدُ العقابِ ﴾[2] صدق اللهُ العظيم.

بدءُ القتال :

دنا موعدُ القتالِ، واصطفَّ الجيشانِ في أرضِ القادسيةِ، وقد تأهبَ كل فريقٍ للانقضاضِ على الآخـرِ، وذلـك في صبيحةِ يومِ الاثنين من شهرِ محرم سنة أربع عشرةَ. وكـان سعدٌ ﷺ مصاباً بمرضٍ أزعجهُ وأقعدهُ عن القتالِ، لقدِ امتـلأ جسدهُ بالدماملِ، فلم يستطعْ أن يمتطـي فرسـهُ ليقـارعَ الفرسانِ، ويجندلَ الأبطالِ، فكم كان ألمه كبـيراً، وحزنـهُ

(١) الآيتان ١٦ ـــ ١٧ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الانفال .

شديداً وهو ينظرُ إلى ساحةِ القتالِ، وميدانِ المعركةِ، وهـــو لايستطيعَ أن يحتلها ويشاركَ فيها، وهو الأسدُ في براثنـــهِ لم يتخلفْ أبداً عن معركةٍ أو غـــزوةٍ كتـــبَ للمســلمين أنْ يخوضوها مهما يكنْ بعد المشقةِ وفداحةُ المشقةُ. وبينما هـــو كذلك يأسفُ لتخلفهِ، ويندب حظـــهُ إذ انفجـــرتْ عينـــاه بالدموعِ، وأخذتْ تتتابعُ متساقطةٌ حتى كادتْ أن تغرقَ ثيابه وتملأَ حِجرهُ.

وفجأة انتصر على نفسهِ، وتمرّد على حزنهِ، وتفوقَ على آلامهِ وعواطفهِ، وقال: إن الوقتَ ليـــس بوقـــتٍ لبـــث الأحزانِ والآلامِ، والاستسلامِ للعواطفِ والأوهانِ، فـــانتفضَ الأسدُ في براثنه وأعلن أن المعركة ليستْ بضربِ الســـيفِ، وطعنِ الرمحِ، وجندلةِ الأبطـــالِ فحســـب، بـــل المعركـــةُ بتخطيطِها وتوجيهِ فرسانها، وحسنِ قيادتها. إنه لـــن يعـــدمَ الحيلةَ، ولن يحرمَ شرفَ المشاركةِ، ولن يفقدَ الأجرَ.

إن المعركةَ بقيادتها وحسنِ توجيهها، وهو الذي ســـوف

يقودها ويوجهُ أبطالها، وعلى كاهلهِ سيكونُ سيرها وتنسيقها. لذلك تحاملَ على آلامه، ووقف أمام جنده خطيباً، مستهلاً خطبته بالآيةِ الكريمةِ: ﴿ ولقد كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَ الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون ﴾[1] ثم تلا آياتِ الجهادِ وسوره، ثم صلى بجنودهِ صلاةَ الظهرِ، وذكرَهم بالله ووعظهم وحثهم على القتالِ، وكبر أربع تكبيراتِ، وكبر المسلمون معه حتى بلغتْ تكبيراتهم عنانَ السماءِ، ورجت الأرضُ منه رجاً فوقع الخوفُ والذعرُ في قلوبِ الفرسِ لأنهم لم يسبقْ لهم أنْ رأوا مشهداً في عظمتهِ وأبهتهِ وجلالهِ وقدسيتهِ، مثلَ هذا المشهدِ...!! ولم يسمعوا نشيداً رائعاً، ولحناً عظيماً مثلَ هذه النشيدَ واللحنِ...!! ولم يروا صلاةً ودعاءً وصفاً متراصاً ومتلاحماً مثلَ هذا التراصّ والتلاحمِ، ولم يروا طاعةً وتضامناً مثلَ تلكَ الطاعةِ وذلك التضامنِ فلا غرابة إذن أن يقعَ

---

[1] الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

الخوفَ والرعبَ في قلوبهم...!! ثم مدّ سعد يمينـــهُ كالســـهمِ النافذِ نحوَ العدوِ، وصاح بجنوده: هيا، سيروا على بركـةِ الله. واندفعتْ جنودُ الله نحو العدو يعلوهمُ التـــهليل والتكــبير، وبأيماهمُ السيوفُ يقطعون بها رؤوسَ الفرسِ ويفصلونها عــن أجسامهمِ، والرماحُ يطعنون بها صدورَ أعدائهم لتخرجَ نافذةً من ظهورهم فجعلتهم يتهاوون تحت ضربِ السيوفِ، وطعنِ الرماحِ كالفراشاتِ المترنحةِ ولقد كان القتالُ ضارياً والمعركـةُ حاميةٌ. استمرتْ إلى الليلِ حيــث فصل بـــين الفـــريقين ظلامهُ بعد أن قتل منهما عددٌ كبير جداً. هذا.. وكان ســعدٌ ﷺ قد صعدَ إلى منـــزله يغالبُ آلامـــهُ،ويتحــامل علــى دماملهِ، متكئاً على صدرهِ فوق وســادةٍ، وهــو ينظــرُ إلى الجيشِ، وينادي بفرسانهِ: انقضوا على عدوكـــــم، شـــدوا العزيمةَ، احملوا على مسيرةِ الفرسِ، أمامكَ يا نعمانُ، خلفــك يا مغيرةُ، اندفعْ نحوهم يا جرير، اهجم يا قعقاعُ اضرب يـــا سلمان، تقدم يا أشعث، احملوا يا أصحاب محمدٍ ﷺ يــامنْ

أكرمكمُ اللهُ بالإسلامِ، وشرفكم باتباعِ نبيهِ، اضربوا يـا جنود اللهِ، قاتلوا ياأتباعَ محمدٍ... فكان صوتهُ المفعمُ بقوة الإيمـان ، المزودُ بالعزمِ والأملِ يجعلُ من كل جنديٍ جيشاً بكاملهِ، وقد نسيَ آلامهُ، ولم يشعرْ بمضِّ دماملهِ لأنَ نشوةَ النصرِ، وبـلاء الجندِ، وتفوقَ المسلمين أنساه المـرضَ والألَمَ، وهـو ينظـرُ مبتهجاً مغتبطاً إلى انتصارِ جنده الكاسحِ، وهزيمـةِ الفـرسِ المخزيةِ فكانوا يتساقطون تحت وطأةِ ضربـاتِ المسـلمين، وتتساقطُ منهم تيجانهمُ، ووثنيتهم، ومجوسيتهم. ولقـد دارتْ بين الجيشينِ معركةٌ قويةٌ وطاحنةٌ استمرتْ إلى الليـلِ. وفي اليومِ الثاني استأنف الفريقانِ القتال منذ الصباحِ، وقد جعـل سعدٌ أمرَ الحربِ إلى خالدِ بنِ عرفطةِ، وعلى ميمنةِ الجيـشِ جريرَ بنَ عبدِ اللهِ البجليَ، وعلى المسيرةِ قيسَ بنَ مكشـوحِ. ودار القتالُ بين الفريقينِ حتى الليلِ، وكذلك في اليومِ الثالثِ وأمستْ هذه الليلةُ تسمى ليلةَ (الهرير)[١] وفي اليومِ الرابـعِ

---

[١] الهرير : صوت الكلب ، وهو دون النباح ، وبه يُشبَّهُ نظرُ الكماة بعضهم إلى بعضٍ . انظر المصباح المنير .

أصبح الفريقانِ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وضيقتِ الفيلةُ على المسلمين الذين تحملوا منها مقاساةً فسيحةً بسببِ خوفِ الخيولِ العربيةِ ونفرتها من الفيلةِ. لذلك كان لابدَ من التفرغِ للفيلةِ والتخلصِ منها فهي السببُ في إعاقةِ تقدمهم، وإطالةِ أمدِ المعركةِ. فتركوا اهتمامهم بالفرسانِ، وتحولوا إلى الفيلةِ فجعلوا يرمونها بالسهامِ، ويطعنونها بالرماحِ مسددين على عيونها حتى قضوا عليها، وأبادوها إبادةً كاملةً ثم تفرغوا لقتالِ الفرسانِ حتى تغيرَ وجه المعركةِ، ومال لصالحِ المسلمين. الذين أخذوا يطاردون فلولَ الفرسِ حتى المدائنِ... كما سيأتي.

صورٌ من بطولاتِ الصحابةِ

لقد كان يومُ القادسية يوماً عظيماً أثبتَ فيه المسلمون شجاعةً عظيمةً لم يشهدِ التاريخُ مثلها، وثبتوا ثباتاً مشرفاً، وصبروا صبراً جميلاً، وأبلوا بلاءً كبيراً، وبدتْ منهم مواقفُ بطوليةٌ رائعةٌ، ومشاهدُ عظيمةٌ مشرفةٌ تشهدُ بصدقهم وإخلاصهم لدينهم، وتفانيهم في سبيلِ الله،وثباهم في وجه عدوهم حتى نصرهم الله نصراً مؤزراً كانوا له أهلاً ، وبه جديرين.

ولقد أبلى يومئذ عدد من فرسان المسلمين وشجعاهم بلاءً حسناً سجلهُ التاريخُ بحروفٍ من نورٍ ، منهم: طليحةُ الأسديُ، وعمروُ بنُ معد يكربَ، والقعقاعُ بنُ عمروٍ، وجريرُ بنُ عبدِ الله البجليُ، وضرارُ بنُ الخطابِ، وخالدُ بنُ عرفجةَ، وأبو محجن الثقفيُ وكثيرون غيرهم، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

أولاً - طليحة بنُ خويلد الأسدي :

وهذا طليحةُ ﷺ الذي أبلى يومئذٍ بلاءً حسناً، وأظهر بطولةً خارقةً تفوقُ الخيال، وله قبل معركةِ القادسيةِ موقفٌ عظيمٌ ومشهودٌ، ذلك أنه خرج مع سريةٍ للمسلمين للقاء الفرسِ، فاخترق الصفوفَ، وتخطى الآلافَ وقتل عدداً كبيراً من الجنودِ الفرسِ وفرسانهم، وأسرَ أحدهم وجاء به إلى القائدِ سعد الذي سأله عنِ القومِ. فجعل يصفُ شجاعةَ طليحةَ وبسالتهُ، ثم لم يلبثِ الأسير أن أسلم. وعن جابرٍ ﷺ قال: باللهِ الذي لا إلهَ إلا هو، ماطلعنا على أحدٍ من أهلِ القادسيةِ يريدُ الدنيا مع الآخرةِ، ولقدِ اتهمْنا ثلاثةَ نفرٍ، فما رأينا مثلَ أمانتهمِ وزهدهمِ: طليحة بن خويلد الأسدي ، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن مكشوح، وكان طليحةُ قد شهدَ الخندقَ مع المشركين، ثم وفدَ على رسولِ الله ﷺ بالمدينةِ فأسلم، وذلك سنةُ تسعٍ، ثم ارتدَ بعد وفاة رسولِ اللهِ ﷺ ، وادعى النبوةَ. فتوجهَ إليه خالدُ بنُ الوليدِ ﷺ

فقاتلهُ فهزمهُ، وتفرق جندهُ وانفضوا عنه، فهرب إلى الشامِ فنزل على آل جفنة.

ثم ندم ورجع إلى الإسلامِ، وبعد وفاةِ أبي بكرٍ الصديقِ جاء يسلمُ على عمرَ فقال له: اغربْ عني، فإنك قاتلُ الرجلين الصالحين، عكاشةَ بنِ محصنٍ، وثابت بنَ أقرمَ. فقال: ياأميرَ المؤمنين. هما رجلان أكرمهما اللهُ على يدي، ولم يهني بأيديهما، فأعجبَ عمرُ بكلامهِ، ورضي عنه لما رأى من صدقِ توبتهِ، وحسنِ إسلامهِ. وكان قد قتل الصحابين الجليلين عكاشةَ بنَ المحصنِ، وثابتَ بنَ أقرمَ في زمنِ ردتهِ وقتالهِ مع خالدِ بنِ الوليدِ. وبعد توبتهِ وإسلامهِ خرج يقاتلُ في سبيلِ الله، فشهد معركةَ اليرموكِ والقادسيةِ ونهاوند، وقيل: إنه استشهدَ في معركةِ نهاوندَ في حروبِ الفرسِ. ولقد كان من الشجعانِ المذكورين، والأبطالِ المشهورين، حتى قيل: كان يعدلَ ألفَ فارسٍ لشدتهِ وشجاعتهِ، وبصرهِ بالحربِ

ثانياً ـ عمروُ بن معديكَربَ :

وهذا عمرو بنُ معديكربَ ﷺ الذي كان له في يـــومِ القادسيةِ موقفٌ بطوليٌ شجاعٌ ومشهودٌ، فلقد كان ينـــازلُ الفرسانَ. ويجندلُ الشجعان، ويهد الفـــرسَ بســـيفهِ هـــداً، ويخترقُ صفوفهمَ ثم يعودُ ولم يصبْ بجـــرحٍ واحـــدٍ، وهـــو ينادي، يا معشرِ المهاجرين، كونوا أسوداً فإنما الفارسي تيسٌ.

وكان على السورِ فارسٌ يرمي المسلمين بسهامهِ، فـــلا يكادُ يسقطُ له سهمُ إلا أصاب مسلماً، فقال له بعضهم: يـــا أبا ثورٍ، اتقِ ذلك الفارسَ فإنه لا تسقط له نشـــابة فرآهـــم ذلك الفارسُ فرماهم بسهمٍ فاتقاه عمروٌ بترسهِ. ثم حمل عليه فقتلهُ. كان ﷺ واحداً من الفرسانِ المشهورين، والأبطـــالِ المعدودين، وكان إلى جانبِ ذلك شاعراً مجيـــداً، ومتكلمـــاً فصيحاً. فمن جيدِ شعرهِ:

أعاذل عدتي بدني ورمحي	**وكل مقلص سلس القياد**[1]
أعاذل إنما أفنى شبابي	**إجابتي الصريخ إلي المنادي**
مع الابطال حتى سل جسمي	**وأقرع عاتقي حمل النجاد**[2]
ويبقى بعد حلم القوم حلمي	**ويفنى قبل زاد القوم زادي**
تمنى أن يلاقيني قييس	**وددت وأينما مني ودادي**[3]
فمن ذا عاذري من ذي سفاه	**يذود بنفسه مني المرادي**[4]
أريد حياته ويريد قتلي	**غذيرك من خليلك من مرادي**

قدم على رسولِ الله ﷺ سنة تسعٍ، وقيل: عشرٍ مع وفدٍ من بني مرادٍ، أو مع قومهِ بني زبيدٍ، ثم ارتدَ مع الأسودِ العنسي باليمنِ فسار إليه خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص فقاتله، فضربه خالدٌ على عاتقهِ بالسيفِ فهرب، وأخذ خالدٌ منه

---

[1] مقلّصٍ بكسر اللامِ قال في اللسان : وفرسٌ مقلص : طويلٌ القوائمِ ، منضمُ البطنِ وسلس القياد : سهلهُ .

[2] النجاد : حمائلُ السيفِ ، يريد أن حمل السيف أتعبه وأثقل كاهله .

[3] قُييسٌ : تصغيرٌ لكلمة قيس .

[4] المرادي : نسبة إلى قبيلة مراد ، فالياء هنا ياء النسب .

سيفه المشهور (بالصمصامة) ثم وقع أسيراً، وأخـــذَ إلى أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ فأنبهُ وعاتبهُ على ردتهِ، ثم عـــرض عليـــه التوبةَ فتاب وحَسنَ إسلامُهُ، ثم التحق بجيشِ المسلمين فِشـــهدَ معركةَ اليرموكِ، ثم بعثهُ عمرُ إلى العراقِ وكتـــب إلى أمـــراءِ الجندِ أن يستشيروه ولا يجعلوه أميراً. ولقد أبلـــى في يـــومِ القادسيةِ بلاءً حسناً، وقتل من جنودِ الفرسِ عـــدداً كبـــيراً وأيدَ اللهُ به الإسلامَ وأهلهُ، والحمدُ اللهِ ربِ العالمين.

ثالثاً ـ القعقاعُ بنُ عمرو ﷺ :

لم يكنِ القعقاعُ ﷺ أقل شأناً من غيرِه مـــن الفرســـانِ المسلمين، فقد أخذ يصولُ ويجـــولُ بعـــد أن توســـطَ أرض المعركةِ ولا يجرُؤ أحدٌ أنْ يدنوَ منـــه. وروي أنَ عمـــرَ ﷺ كتب إلى سعدٍ وهو بالقادسيةِ يسألهُ: أي فارسٍ كان أفـــرسَ في القادسيةِ...؟ فردَ عليه يقولُ: إني لم أرَ مثلَ القعقـــاعِ بـــنِ عمروٍ، حمل في يومٍ واحدٍ ثلاثين حملةً، يقتلُ في كـــلِ حملـــةٍ

بطلاً.

وكذلك كان **القعقاعُ** ﷺ واحداً من فرسانِ العــربِ في الجاهليةِ والإسلامِ، كما كان شاعراً مجيداً، ومتكلماً فصيحاً.

وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: ماأعددْت للجهادِ ...؟

قال : طاعة الله ورسولِهِ ، والخيلَ .

قال : تلك الغايةُ .

وهو الذي قال عنه أبو بكرٍ الصديــقُ ﷺ : لصــوتُ القعقاع في الجيشِ خيرٌ من ألفِ رجلٍ .

وحين طلب خالدُ بنُ الوليدِ ﷺ من الخليفةِ الصديــقِ أن يُمدَّه بعددٍ من الرجال أثناء حصارهِ للحيرةِ .

أَمَدَّه الصديقُ بالقعقاع بنِ عمروٍ ، وقـــال : لا يُــهزَمُ جيشٌ فيه مثلُهُ ، ولقد شهد ﷺ فتحَ دمشقَ ، وأكثرَ فتــوحِ العراقِ ، وله في ذلك اشعارٌ عذبةٌ وجميلةٌ ، منها ما قالهُ يــوم اليرموك وكان على رأسِ كردوسٍ :

يدعون قعقاعاً لكلِ كريهةٍ | **فيجيبُ قعقاعٌ دعاءَ الهاتفِ**

ومن جيدِ شعرِه رضي الله عنه :

ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تهامةٍ | **يهدي المناقبَ راكباً لعيا**

في جندِ سيفِ اللهِ سيفِ محمدٍ | **والسابقين لسنةِ الأبرار**

رابعاً ـ ضرارُ بنُ الخطاب رضي الله عنه :

لم يكنْ ضرارٌ رضي الله عنه أخاً لسيدنا عمرَ رضي الله عنه ، بل هو تشابهٌ بالكنى .فهو ضرارُ بنُ الخطابِ بنِ مرداسٍ ، وكان مِمَّنْ أسلم يومَ الفتحِ .

وكان بطلاً مغواراً ، وفارساً لا يشقُ له غبارٌ ، ولقد أبدى يومَ القادسيةِ بطولةً خارقةً لا تقلُّ شأناً عن بطولاتِ غيرِه من فرسانِ المسلمين وشجعانِهم .قال ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ :

قاتلَ ضرارُ بنُ الخطابِ المسلمين في الوقائعِ أشدَّ القتلِ،

وكان يقولُ : زوجتُ عشرةً من أصحابِ النبي ﷺ بــالحورِ العينِ، وله ذكرٌ في أحدٍ والخندقِ ، ثم اسلم في الفتحِ ، وقتــلَ باليمامةِ شهيداً .[1] .

إلا أنَّ ابنَ حجرٍ تعقَّبَ ذلك فقال :وقال الخطيبُ : بــل عاش إلى أن حضر فتحَ المدائنِ ، ونزل بالشام [2] ذكر ابــنُ كثير في البداية والنهايةِ أنه شارك في معركةِ القادســيةِ ، ولا شكَّ أنها حَدثتْ قبل فتحِ المدائنِ .

كان رضي الله عنه من فرسانِ قريشٍ وشعرآئهم المطبوعين حتى لقد قيل عنه : ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم .

وهو أحدُ الأربعةِ الذين وثبوا الخندقَ لقتالِ المسلمين.

وهو الذي قال لأبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه : نحنُ كُنّا لقريــشٍ خيراً منكم ، أدخلناهمُ الجنةَ ، وأوردتموهمُ النارَ .

---

[1] طبقات ابن سعد .

[2] الإصابة في تمييز الصحابة .

واختلفتِ الأوسُ والخزرجُ فيمن كان أشجعَ يومَ أُحـدٍ ، فمرَّ بهم ضرارُ بنُ الخطاب فقالوا : هذا شهدِها وهو عالمٌ بها، فبعثوا إليه فتىً منهم فسألهُ عن ذلك ، فقال : لا أدري مـــا أوسكُم من خزرجِكم ، ولكنْ زوجتُ يومَ أحدٍ منكم أحـــدَ عشر رجلاً من الحورِ العينِ [1] .

يريدُ أنه قتل يومَ أحدٍ أحدَ عشر مسلماً .

خامساً - خالدُ بنُ عُرفُجَة :

بضم العين والفاء وبينهما راءٌ ساكنةٌ وإليه يعودُ فضـــلٌ كبيرٌ بنصرِ المسلمين يوم القادسيةِ ، فهو الذي جعله ســعدٌ ﷺ أميرَ الحرب ، حين كان سعدٌ مريضاً .

ولقد كان خالدٌ أهلاً لتلك الإمرةِ ، وبها جديرٌ ، حيــث أحسن القيادةَ والإمرةَ ، وقام بدورِ بطــولي رائــع يشـــهدُ

[1] الاستيعاب .

بصدقه وبلائه ، وإخلاصه لدينه ، وقال في الإصابة : هو خالد بن عرفطة [٢] ، والله اعلم .

سادسا ـ أبو محجن الثقفي :

واسمه : عمرو بن حبيب بن عمرو .

وقيل : اسمه : مالك .

وقيل : عبد الله .

وقيل : اسمه كنيته ، ولقد اشتهر بأبي محجن الثقفي ، ولا يعنينا اسمه إنما يعنينا فعله وبطولته العظيمة ، وشجاعته النادرة يوم القادسية العظيم ، يوم كان سعد ﷺ مريضا ، فكان يشرف على المعركة ويديرها من شرفة منزله ، وباب داره مفتوح ، ولوفر الناس وتركوه لاخذته الفرس قبضا باليد ، لا يمنعه منهم شيء .

---

[٢] الإصابة .

وكان أبو محجنِ الثقفيُّ مسجوناً في منـــزلِ سعدٍ ، وذلك لأنه كان يشربُ الخمرَ ، فضربه سعدٌ على ذلــك ، حدَّ شاربِ الخمرِ ، ثم قيدَهُ وأودَعَهُ السجنَ .

فلمّا اشتعلَتِ الحربُ ، ودارَتْ رحاها ، وأبصر الخيــول تجولُ حول حِمى المنــزلِ ، وكان من الشجعان المعدودين ، والفرسانِ المشهورين أخذَ يتألم في نفسِهِ ، ويبحثُ عن سـببٍ يخرجُهُ من سجنِهِ ليندفعَ إلى أرضِ المعركةِ لمقارعةِ الفرســانِ ومصارعةِ الابطالِ ، ولكنْ أنّى له ذلك وهو مسجونٌ يرسفُ في قيودِهِ ، فانشأ يقول :

كفى حزنا أن تردي الخيل بالقنا	وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذا اقمت عناني الحديد وغلقت	مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة	وقد تركوني مفردا لا أخاليا

ثم سأل زوجة سعدٍ أن تطلقهُ وتعيرَهُ فرسَ سعدٍ . فــأبت عليه ذلك ، فألَحَّ عليها وأقسمُ لها بأن يرجعَ آخر النـــهار

فيضعَ رجلَهُ في القيدِ ويعيد الفرسَ إلى مكانها .

فأجابته إلى ذلك ، فامتطى فرسَ سعدٍ ، وانطلق إلى أرضِ المعركةِ ، وراح يقاتلُ قتالَ الأبطال ، يضربُ هذا ، ويطعنُ هذا ، ويسقطُ ذاك عن فرسِهِ ، ويجندل الآخر في مكانِهِ وكأنه جيشٌ كاملٌ ، هذا وسعدٌ ينظرُ من شرفته إلى فرسِهِ فيعرفها وينكرُها ، ويشبهُ ذلك الفارسَ بأبي محجنٍ ، ثم يعودُ فيقولُ في نفسهِ : إنّ أبا محجنٍ في سجنهِ مقيدٌ بالحديدِ ، ويُستبعدُ أن يكونَ هو الذي يفعل بالفرسِ الافاعيلَ .

وفي آخرِ النهارِ ، وحين خيم الظلامُ ، وتوقفَ القتالُ ، وتراجعَ الفريقان ، رجع أبو محجن إلى سجنهِ ، ووضع القيدَ في رجلِهِ بعد أن أعاد الفرسَ إلى مكانها .

ونزل سعدٌ من شرفتِهِ فرأى فرسَهُ والعرقُ ينحدرُ منها ، وكأنها وقفت من لحظتها ، فعجب وقال : ماهذا ؟

فذكروا له قصةَ أبي محجنٍ ، وتألّمه وتحسُّرَهُ على القتالِ

وهو في سجنِهِ ، فعفا عنه ، واطلق سراحَهُ ، ودعا له بخيرٍ.

سابعاً - جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البُجليُّ ﷺ :

كانَ جريرٌ ﷺ يصولُ ويجولُ يومئذٍ في أرضِ المعركـــة ، ويجندلُ الأبطال والفرسان ويقول :

أنا جريـــر كنيـــتي أبـو عمـــرو قد فتـــح الله وسعـــد في القصـــر

فسمعَهُ سعدٌ ، فأشرف عليه من شرفةِ منـــزِلِهِ وقال :

ومـا أرجـو بجيلـة غـير أنـي أؤمـل أجرهـا يـوم الحساب

وقـد لقيـت خيولـهم خيـولا وقـد وقـع الفـوارس في الضـراب

وقـد دلفـت بعرصتـهم خيـول كـأن زهاءهـا إبـل الجـراب[1]

فلولا جمـع فعقـاع بن عمـرو وحمـال للجـوا في الركـاب

ولـولا ذاك ألفيتـم رعـاعـا تسيـل جموعكم مثل الذبـاب[2]

---

[1] الدليف : المشيُ بِرويد، ودَلَفَتِ الكتيبةُ إلى الكتيبة في الحرب : أي تقدمَتْ والعَرَصةُ : الساحة والبقعةُ الواسعة التي ليس فيها بناء ، والجمع : عراصٌ ، وعَرَصاتٌ .

[2] ألفيتم : وجدتم ، ورُعاعُ الناس بضم العين : سقّاطُهم وسَفَلَتُهم انتهى من اللسان .

وكان رجلٌ من ثقيفٍ التحق بالفرسِ مرتداً فاخبرهم أنَّ بأسَ الناسِ وقوهم في الجانبِ الذي فيه بُجيلةُ ، وكانت بجيلةُ يشكلُ أفرادها ربع جيشِ المسلمين .

فكرَّس الفرسُ جهودَهم نحوها ، ووجهوا إليهم الفيلــة ، وألقوا تحت أرجلِ الخيولِ حَسك الحديد ، وركزوا عليــــهم السهامِ التي كانت تنــزل عليهم كالمطرِ .

وصَمَدتْ بجيلةُ والمسلمون جميعاً حتى قضوا على الفيلــة كما تقدم ، وكان ذلك اليومُ يسمى بيومِ القادسيةِ ، وقــــد صادف يومَ الاثنين من شهرِ محرم سنةَ أربعَ عشرة للهجرةِ .

هزيمة الفرس :

ولقد أيَّد اللهُ تعالى عبادَهُ في ذلك اليومِ بســـلاحٍ قــويّ وفتاك، فأرسل ريحاً شديدةً عاتية قلعـــتْ خيــامَ الفــرسِ ، وذرتِ الرمالَ في عيوهم ، وألقتْ سريرَ رستمَ المنصـــوبَ ،

وقذف اللهُ الرعبَ في قلوبهم ، فهربوا وتفرقوا في كلِ جهةٍ ، وركب رستم فرسَه يريدُ الهربَ ، فتصدى له جنديٌّ من جنود المسلمين يقالُ له : هلالُ بنُ علقمةَ التميميُّ ، وصمدَ أمامه ودارت بينهما معركةٌ استطاع هلالٌ أن يتغلبَ عليه ويقتلَهُ ، ويأخذ سيفهُ وعدةَ حربِهِ ، وكأنه لم يصدقْ ما حصل له ، وأنَّ اللهَ تعالى أعانه على رستمَ فقتلهُ ، فجعل يرفعُ سيفَهُ ويلوحُ به في الأفقِ ويقولُ : قتلتُ رستمَ ، قتلتُ رستمَ وربِ الكعبةِ .

ولم يلبث أن تصدى للجالينوسِ وكان أكبر قوادِ رستمَ ، جنديٌّ آخرُ يقالُ : زهرةُ بنُ حويةَ التميميُّ .

ولم يكدِ الفارسيون يشهدون مصرع رستم والجالينوسِ حتى ألقوا اسلحتهم وغادروا أرض المعركةِ طالبين النجاةَ ، وكان منهم مَنْ أمرَ رستمُ بتقييدِهم ، وربطهم بالسلاسِلِ كي لا يهربوا ، وكانوا ثلاثين ألفاً قتلوا جميعاً ، كما قُتِلَ في المعركةِ على أيدي المسلمين عشرةُ آلافٍ ، وقُتِلَ مثلُ ذلك

العدد من قبل ، في الوقت الذي قتل فيه من المسلمين يومئذ ألفان وخمسمائة رحمهم الله تعالى .

هذا ... وقد هرب الفارسيون إثر مقتل قائدهم رستم ومعاونه الجالينوس ، واندفع المسلمون خلفهم كالسيل الجارف لا يقف أمامهم شيء ، ولا يعترض طريقهم حاجز ولا قيد حتى دخلوا وراءهم عاصمة ملكهم المدائن ، وفيها الملك والإيوان ، ونصر الله عباده نصرا مؤزرا ، وفتح عليهم فتحا مبينا ، وأذل الله الفرس وخذلهم وكسر شوكتهم وأخزاهم ، ورد كيدهم إلى نحورهم ، وجعل سهامهم في صدورهم ، وتحققت المعجزة الكبرى ، وصدق قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [1] صدق الله العظيم .

---

[1] الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

ولقد فتح اللهُ تعالى على المسلمين المدائنَ ، ورزقَهم خيراً كثيراً ، وهيأَ لهم مالاً وفيراً ، وغنَّمهم مغانم أكثر منْ أن تُعَدَّ أو تُحصى من مال وسلاحٍ وعتادٍ ، سوى الأسرى والسبايا وغيرِ ذلك ، ﴿وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ اللهِ هي العليا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾[1] .

بشرى النصر :

هذا ... وكتب سعدٌ ﷺ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ ﷺ يخبرُهُ بالنصرِ والفتحِ ، وبعددِ مَنْ قتل من الفرسِ ، وبعددِ مَنْ قُتِلَ من المسلمين ، وبعددِ الأسرى والسبايا والمغانم الكثيرةِ والوافرةِ، وبعث الكتابَ مع رجلٍ من المقاتلين المسلمين يقال له : سعدُ بنُ عميلةَ الفزاري .

وحين أخذ عمرُ الكتابَ جمع الناسَ ، ثم صَعِدَ المنبرَ ليزفَّ للمسلمين بشرى نصرِ جندِ اللهِ في القادسيةِ ، وفتحهم العظيم، وهزيمةِ الفرسِ وحزبهم ، وتخذيلِ الشيطانِ وحزبِهِ .

---

[1] الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وأعلنَ فرحتَهُ الكبيرةَ بهذا النصرِ المبينِ ، وانتشر التـهليلُ والتكبيرُ في المسجدِ النبوي وخارجَهُ حتى ملأ أرجاءَ المدينـــةِ كلها تعبيراً عنِ الفرحةِ الكبيرةِ والغامرةِ .

وشكر المسلمون ربَّهم على نصرِهِ وتــأييدِه ، وأقــاموا الصلواتِ والتسبيحاتِ تعبيراً عن فرحتهم ، وشكراً لربهــم ، وتضامناً مع إخوانِهِم المقاتلين الذين رفعــوا رأس المســلمين عالياً ، وزادوا من شرفهم ورفعتهم وشموخِهِم وإبائِهِم ، كما رفعوا لواءَ الإسلامِ عالياً خفاقاً يشهدُ بعظمتِهِم وتضحياتِهِم، وصدقهم مع أنفسهم ، وإخلاصِهِم لربهــــم ، وتفانيـــهم في سبيلِ دينهم وعقيدهم .

ونشروا في ربوع العراق الحبَّ ، والعدلَ والاخــــوةَ ، والحريةَ ، والمساواةَ ، والتعاونَ ، والتضامنَ ، والإنســانيةَ ، ففتِحتْ لهم قلوبُ العبادِ قبل أنْ تُفتَحَ لهمُ البلادُ .

ولسوف يفتحون الأرض كلها ، وينشرون فيـــها نــورَ الإسلامِ وضياءَه ، وليُعمَّ الأمنُ والرخاءُ والازدهارُ والعدلُ ،

ولتطبَّقَ أحكامُهُ وحدودُهُ وتشريعاتهُ وينعمَ النـــاسُ برحمتِـــهِ ويلمسوا فضلَ اللهِ وخيرَهُ ونعَمَهُ وآلاءَه .

رواية أخرى بوصول بشرى النصر:

اشتدَّ قلقُ أميرِ المؤمنين عمرَ ﷺ حين تأخرَتْ عنه أنبـــاءُ القادسيةِ فغدا لا يبيتُ ، ولا يجلسُ، ولا يهدأ له بـــالٌ ، ولا يشعرُ بالراحةِ حتى يأخذَ خبراً عنِ القادسيةِ وما حَلَّ بجندِ اللهِ.

فكان يخرجُ بنفسهِ كلَّ يومٍ إلى ظاهرِ المدينةِ لعلَّهُ يشــمُّ خبراً، أو يستنشقُ نبأ يأتيهِ من العراقِ يثلجُ صدرَهُ ، ويطمئنُ قلبَهُ ، ويريحُ نفسَهُ مما أصابها مِنْ قلقٍ واضطرابٍ ، وعـــدمِ الشعورِ بالراحةِ والأمانِ .

فكان يرقبُ كلَّ من أقبل إليه من العراقِ راكباً كـــان أم ماشياً ، فرداً كان أم جماعةً ، عرباً كانوا أم عجماً ، فبينمـــا هو ذاتَ يومٍ يرقبُ الطريقَ إذا به يبصرُ راكباً يلوحُ له مِـــنْ بعدٍ ، فسعى نحوه ، ثم سأله في لهفةٍ :

ماذا حلَّ بجندِ اللهِ ....؟

وما هي أنباءُ المعركة....؟

وكيف هي الحالُ في العراقِ ...؟

فأجابه الرجلُ مطمئناً : لقد فتح الله علـــــى المســـلمين بالقادسيةِ ، وغنموا مغانمَ كثيرةً .

وجعل عمرُ رضي الله عنه يحدثُهُ ويسألهُ ، والرجلُ لا يعـــرفُ أنَّ الذي يمشي إلى جانبهِ ويحدثُهُ هو أميرُ المؤمنين الذي كان قــد نزل عن راحلتِهِ ، وأمسكَ بزمامها وجعل يمشي على قدميه.

فلما اقتربا من المدينةِ جعل الناسُ يحيون عمرَ بالإمــارةِ ، ويقولون : السلامُ على أميرِ المؤمنين .

فعرف الرجلُ عمرَ فقال له : يرحمُكَ اللهُ ياأميرَ المؤمنـــين هلا أعلمتني أنك الخليفةُ ...؟؟؟

فقال عمرُ رضي الله عنه : لا حرج عليك يا أخي ولا بأسَ .

وفي رواية أن سعداً رضي الله عنه بعث بكتابِ بشرى النصـــر إلى عمرَ مع رجلٍ يقال له : سعدُ بنُ عميلةَ الفزاريُّ يقول فيــه : أما بعدُ.فإنَّ الله نصرنا على أهلِ فارسَ ، ومنحناهم سُنَنَ مَــنْ

كان قبلهم مِنْ أهلِ دينهم ، بعد قتــالٍ طويــلٍ ، وزلــزالٍ شديدٍ.

وقد لقوا المسلمين بعدةٍ لم ير الراؤون مثلَ زُهائها ، فلــم ينفعهم اللهُ بذلك ، بل سُلِبوه ونقله عنــهم إلى المســلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهارِ ، وصفوفِ الآجــامِ [1]، وفي الفجاجِ.

وأصيبَ من المسلمين سعدُ بنُ عبيدِ القاري ، وفــلانٌ ... وفلانٌ ... ورجالٌ من المسلمين لا يعلمُهم إلا اللهُ ، فإنه بهــم عالمٌ ، كانوا يدوون بالقرآنِ إذا جَنَّ عليهم الليــلُ كــدوي النحلِ ، وهم آسادٌ[2] في النهارِ لا تشــبههمُ الأســودُ ، ولم يفضلْ مَنْ مضى منهم من بقيَ إلا بفضــلِ الشــهادة إذا لم تكْتبْ لهم .فقرأ عمرُ ﷺ تلك البشــارةَ على الناسِ فوق منبرِ رسولِ الله ﷺ.

[1] الآجام : جمع أجمة وهو الشجر الملتف .

[2] الآساد : الاسود .

إيذاءُ سعدٍ :

علمنا أنّ سعداً ﷺ كان أثناءَ المعركةِ مريضاً يشرفُ عليها من شرفةِ منزلِهِ ، فلما استطاع أن يمشي نزل إلى الناسِ فاعتذرَ عن تخلُّفِهِ عنهم ، إذ ليس على المريضِ حرجٌ فقبلوا عذره ، ولم يؤاخذوه وهم يعلمون ما به من مرضٍ .

وكان سعدٌ ﷺ قد سمع رجلاً من المسلمين يقولُ فيه :

نقاتلُ حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم[1]

فلما سمع سعدٌ كلامَهُ وما يحملُ له من إساءة ، دعا عليه وكان مجابَ الدعوة فقال : اللهم إنْ كان هذا كاذباً ، أو قال الذي قال رياءً وسمعةً وكذباً فاقطعْ لسانَهُ ويدَهُ .

فجاءه سهمٌ وهو واقفٌ بين الصفّيْن فأصابه في لسانهِ فانقطع نصفُهُ ، فلم يستطِعْ أنْ يتكلم بعد ذلك .

---

[1] أُبْنا : رجعنا ، وآب : رجع . والأَيِّمُ : العزَبُ رجلاً كان أو امرأةً ، والجمع أيامى وقوله : آمتْ نساءٌ كثيرةٌ : أي لم تتزوج والحربُ مأيمةٌ لان الرجالَ تقتلُ فيها فتبقى النساء بلا أزواج.

فرحم اللهُ سعداً ورضي عنه فقد كان مجابَ الدعــــوةِ ، ومشهوراً بين جميـــــعِ الصحبِ الكرامِ بذلك بفضلِ دعــاءِ النبي ﷺ له بقولِهِ : اللهم أجبْ دعوتَهُ ، وسدّدْ رميتَهُ .

الخاتمة :

لقد أيدّ اللهُ عز وجل عبادَه المؤمنين يوم القادسيةِ بــالريحِ الشديدة العاتيةِ كما أَيَّدَهم يومَ الخنـــــدقِ ، يـــومَ تحـــزّب الأحزابُ وهجموا على المدينةِ وطوقوها من كـــــلِ جـــانب للقضاءِ على الدعوةِ الإسلاميةِ ، فارسل اللهُ عليـــــهم ريحــاً وجنوداً لم يروها ، ودافع اللهُ تعالى عنِ المؤمنـــين وحمـــاهم ، وأيدَهم بنصرِهِ وريحٍ من عندِهِ .

قال تعالى متحدثاً عن نعمتِهِ وفضلِهِ على عبادِهِ :

﴿ ياأيّها الذين آمنوا اذكـــــروا نعمـــةَ الله عليكـــم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقِكم ومِنْ أسفلَ منكـم

وإذ زاغتِ الأبصارُ وبَلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بـــــالله الظنونا . هنا لك ابتُليَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[1].

وفي معـــركةِ القادســـيةِ حَدَثَ كـــما في يومِ الخنـــدق (الأحزاب) وهذه ســـنةُ الله في عباده المؤمنين لن تتخلْفَ ، ولن تنتهيَ ، ولن تتبدلَ ، ولن تحيدَ ، مصداقُ ذلك قـولُ اللهِ تبارك وتعالى :

﴿ إنّا لننصر رسُلنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويـــوم يقومُ الاشهاد ﴾[2] صدق الله العظيم

تمت الرسالة والحمد لله رب العالمين

بدءاً وختاماً

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ أخرى .

---

(١) **الآيات** ٩ ــ ١١ من سورة الأحزاب .

(٢) **الآية ٥١ من** سورة غافر .

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة

معارك عربية خالدة

١٠

فتح المدائن

إعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة فتحِ المدائنْ

تمهيد :

لمعركةِ فتحِ المدائنِ صلةٌ وثيقةٌ بمعركةِ فتحِ القادسيةِ، فهيُ تعُتبرُ تكملةً لحلقاتها. واستمراراً لأحداثِها، وتثبيتاً لوجودِ المسلمين في العراقِ، وتجسيداً لجميعِ الأحداثِ والمعاركِ التي سبقتها، وتتويجاً لأعمالِهم وبطولاتِهِمُ الخالدةِ التي تعبرُ عنْ صدقِ نياهم، وإخلاصِهِم لدينِهم، واستجابتِهم لأوامر ربهِمْ، وتفانيهم في الجهادِ في سبيلِهِ، طيبةً به نفوسهم مرتاحةً له ضمائرُهم، صادقة به قلوبهم، ﴿ فرحين بما آتاهمُ اللهُ منْ فضلهِ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِنْ خلفِهمْ ألا خوفٌ عليهم

ولاهم يحزنون. يستبشرون بنعمـــةٍ مـــن اللهِ وفضـــلٍ وأن اللهَ لايضيعُ أجرَ المؤمنين﴾ [1] .

لقد كانت معركةُ فتحِ القادسيةِ نصراً ساحقاً. وفتحـــاً مُبيناً ، وتفوُّقاً عظيماً، تحوّل إلى نافذةٍ كبيرةٍ ، وبابٍ واســـعٍ دخل منهما المسلمون ليطلّوا على عاصمـــةِ الفـــرسِ ،وهـــي المدائنُ، مركز ملكهِم،ومقرُّ إيوانهِم، ليحققوا نصراً بعد نصـــرٍ، وفتحاً بعدَ فتحٍ، ثم ليتوجوا ذلك النصرَ والفتحَ بنصرٍ أعظـــمَ، وفتحٍ أكبرَ ينتهي بوعدِ اللهِ تعالى لعباده المؤمنين : ﴿ولقد كتبنـا في الزبـــورِ مـــن بعـــدِ الذكـــرِ أنْ الأرضَ يرثـــها عبـــاديَ الصالحون﴾[2]صدق الله العظيم .

وبتحقيقِ حلمِ النبيِ ﷺبتحريروفتحِ بلادِ فـــارسٍ، بعـــد إسلامِ أهلها وسجودِهمْ للهِ القهارِ بعد أن يخلعوا عن أنفســـهم عقيدةَ عبادةِ النارِ، وينفضوا عن كواهلِهم غبارَ تلك العقيـــدةِ

---

[1] الآيتان ١٧٠ – ١٧١ من سورة آل عمران.

[2] الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

الفاسدةِ، وبعد ثورهم على مخلفاتِ الجاهلية، وتحطيمهم بقايا الوثنيةِ، وانضمامهِم إلى زمرةِ المؤمنين الذين شهدوا مع رسولِ الله ﷺ يوم الأحزاب، وحفروا بأيديهمْ خندقاً حول المدينةِ ليكونَ حائلاً يمنَعُ الأحزابَ منْ دخولِها، يوم اعترضتهم صخرةٌ عظيمةٌ، فأخذ رسولُ الله ﷺمعولاً فرفعهُ وتلا قولَ الله تبارك وتعالى : ﴿وتمّتْ كلمةُ ربكِ صدقاً وعدْلاً لامبدّلَ لكلماتهِ وهو السميعُ العليمُ ﴾[1] .

وأهوى بالمعولِ فتحطمَ ثلثُ الصخرةِ فقال: الله أكبرُ... أعطيتُ مفاتيحَ الشامِ، والله إني لأرى قصورها الحمراءَ الآن منْ مكاني هذا. ثم ضرب ضربةً أخرى وتلا قولَ الحقِ تبارك وتعالى: ﴿ وتمتْ كلمةُ ربكَ صدقاً وعدلاً لامبدلَ لكلماتهِ وهو السميعُ العليم﴾ وأهوى بالمعولِ فتحطمَ الثلثُ الآخرُ ، فقال : اللهُ أكبرُ... أعطيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إني لأرى قصرَ المدائنِ الأبيضَ الآن من مكاني هذا. ثم رفع المعولَ وتلا نفسَ

---

[1] الآية ١١٥ من سورة الأنعام

الآيةِ الكريمة، وأهوى به فتحطمتِ الصخرةُ كلُّها فقـــال: الله أكبرُ ... أعطيتُ مفاتيحَ اليمن، والله إني لأرى بابَ صنعـــاء، فقال المسلمون : يارســـولَ الله، ادع الله أنْ يفتحـــها علينـــا، ويغنمنا ذراريهم، ويخربَ بأيدينا بلادهمْ. فدعا لهم النـــبيُ ﷺ بذلك، ولقد أجاب الله تعالى دعاءهُ وفتح تلك البـــلادَ علـــى عباده، ففتح عليهم أولاً بلادَ اليمن، وأدخلهم قصرَ صنعـــاء. ثم فتح عليهم بلادَ الشامِ ، وأدخلهُمْ قصورهِا، ونَصرَهـــمْ علـــى الرومِ نصراً مؤزراً، وعلى أيديهم تمَ طردُ الرومِ ومِلكهِم هرقـــلَ من ربوعِ الشامِ ومروجهِا الخضراء،تصديقاً لقولِ النـــبي ﷺ: (إذا هلكَ قيصرُ، فلا قيصر بعدهُ، وإذا هلكَ كســـرى ، فـــلا كسرى بعدهُ والذي بيدهِ لتنفقنَ كنوزهِمـــا في ســـبيلِ الله)[1] ولقولـــه ﷺ: (إن الله زوى ليَ الأرضَ مشـــارقها ومغاربهـــا وسيبلغُ ملكُ أمتي مازوى ليَ منها)[2]صدق رســـول الله ﷺ،

---

[1] الشيخان .

[2] الشيخان . زوى : جمع

وهاهم أولاءِ المسلمون جندُ اللهِ المؤمنون يفتحون بلادَ فــارسَ، وينتصرون عليهم في القادسيةِ، ويلاحقونهم إلى بابلَ، ومنها إلى بهرسير، وليتوجوا انتصاراتهمِ بالتوغلِ في بلادهِم، ومن ثم بفتــحِ عاصمةِ ملكهِم المدائنِ ، وهي محورُ حديثنا في هذة الرســالةِ إن شاء الله تعالى. لقد كان المسلمون كلما فتحوا بلداً، أو دخلــوا مدينةً يقول لهم أبو هريرةَﷺ: افتتحوا مابدالكم أن تفتتحــوا، فوالذي نفسُ أبي هريرةَ بيدهِماافتتحتم من مدينةٍ ولاتفتحونهــا إلى يومِ القيامةِ إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً مفاتيحَها قبــل ذلك[1].

---

[1] البداية والنهاية.

على هامشِ معركةِ القادسيةِ

كان العربُ في شرقِ الأرضِ وغربِهـا يـترقبون بلهفـةٍ وشوقٍ أخبارَ القتالِ الدائرِ بين المسلمين والفرسِ في القادسـيةِ، فهم يرون أن هذه المعركةَ هي التي ستحدد مصيرهم، وعليـها يتوقف ثبات ملكِهمْ أو زوالهُ ، فكانت قلوبُهمْ وأحاسيسُـهم ومشاعرُهم على اختلافِ دياناهِمْ ومعتقداهِمْ مع المسـلمين، يتعاطفون معهم ويربطون مصيرهمْ بمصيرهِمْ ، ويشـاركوهُمْ الأفراحَ إذا فرحوا ،والأحزانَ إذا حزنوا ، يقـول الطـبريُ في تاريخهِ: وكانت في كل بلدٍ مصيخةٌ[1] إليها، تنظر مايكونُ مـنْ أمرها، حتى إنْ كان الرجلُ ليريد الأمرَ فيقولُ: لا أنظرُ فيـه حتى أنظرَ مايكون من أمرِ القادسيةِ، فلما كانت وقعةُ القادسيةِ سارتْ به الجنُ فأتتْ بها ناساً من الإنسِ، فسبقتْ أخبارَ الإنسِ إليهمْ. قالوا : فبدرتِ امرأة ليلاً على حبلٍ بصنعاءَ، لايُدْرَى من هي ... ؟ وهي تقول:

---

[1] مصيخةٌ : مستمعةٌ منصتة، من أصاخ يصيخ إصاخة : استمع وأنصت لصوت .

حييتَ عَنّا عكرمَ بنةَ خالدٍ ... وما خير زاد بالقليلِ المصردِ(1)

وحيّتكِ عني الشمسُ عندَ طلوعها ... وحيّاك عني كلُّ ناجٍ مفردِ

وحيّتك عني عصبةٌ نخعيةٌ ... حسانُ الوجوهِ آمنوا بمحمدِ(2)

أقاموا لكسرى يضربون جنوده ... بكل رقيقِ الشفرتين مهنّدِ

إذا ثوّب الداعي أناخوا بكلكلٍ ... من الموتِ مُسْودِّ العياطلِ أجردِ(3)

وسمع أهلُ اليمامةِ مجتازاً يغني بهذه الأبياتِ:

وجَدْنا الأكثرين بني تميمٍ ... غداةَ الروعِ أصبرَهم رجالا

هُمُ ساروا بأرعنَ مكفهرٍّ ... إلى لجبٍ يرونهمُ رعالا(4)

---

(1) المصردُ : المخطئ، يقال: سهم مُصرد : مصيب ، وسهم مصرد : مخطئ فهو من الألفاظ المشتركة .

(2) نخعيةٌ : اسم لقبيلةٍ من مذ حج.

(3) ثوبَ الداعي : ردّد صوته ، ومنه التثويب في الأذان ، والأجرد: هو الذي لا شعر على جسده .

(4) الأرعنُ : الأهوجُ في منطقه، ومكفهر : وجه منقبض لا طلاقةَ فيه ، وفي الحديث : القوا المخالفين بوجه مكفهر، أي عبوس قطوب. لجب : هو الصوت والصياح والجلبة، واللجبُ: صوت العسكر ، وعسكر لجبٌ : عرَمْرَمٌ ، وذو لجبٍ وكثرةٍ. والرعال: الجماعة من الفرسان... انظر لسان العرب .

بحورٍ للأكاسرِ من رجالِ	كأسدِ الغابِ تحسبُهم جبالا
تركنَ لهم بقادسَ عزَّ فخرٍ	وبالخيفين أياماً طوالا
مقطعةً أكفهمُ وسوقٌ	بمردٍ حيثُ قابلتْ الرجالا

قال: وُسمعَ بنحوِ ذلك في عامةِ بلادِ العربِ [1] وهذا مايؤكدُ صدقَ العاطفةِ العربيةِ، وعمقَ الروابطِ الأخويةِ بين أفرادِ الأمةِ الواحدةِ، والشعورَ القائمَ على وشيجةِ القربى التي تعلو على كلِ وشيجةٍ، وتربطُ بين جميعِ قبائلِ العربِ على اختلافِ ألوانهم، وتنائي بلدانهمْ, وتباعدِ أقطارهمِ . إنهم في الظاهر على افتراق،ولكنهم في الباطنِ على تلاقٍ فهم يتناجون في الضمائرِ، ويتخاطبون بالسرائرِ، ولا جرمَ أنْ ماتعارفَ من الأرواحِ ائتلفَ. وماتناكر منها كما قيلَ اختلف.

إنهم وإنَ بعُدتْ بينهمُ الشقةُ، فلُحمةَ الأدبِ تجمعهم، ووحدةُ اللغةِ تضمهم . والعاطفةُ الصادقةُ تؤلفهم، وتربطُ بين قلوبهمِ، وترسخُ فيها أواصرَ القربى وتجعلُ منهم أمةً قويةً متضامنةً متماسكةً تتحدى الأهوالَ، وتهزأُ بالصعابِ.

---

[1] تاريخ الطبري .

وتستهينُ بالخطوبِ، وتتبوأ أعلى المراتـــبِ وأشـــرفَها، وتكونُ أهلاً لحملِ أعظمِ رسالةٍ سماويةٍ وأقدسها، وتتولى قيـادةَ الأممِ والشعوبِ في شرقِ الأرضِ وغربها، وتملأَ الدنيا بأســـرِها عدلاً ورحمةً وإخاءً وإنسانيةً بعد أن ملئتْ جـــوراً وظلمـــاً، وتسلطاً واستعباداً، ولتخرجَ الناسَ من عبادةِ العبادِ إلى عبـــادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ، ومنِ جورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ: ﴿ وإنه لذكرٌ لك ولقومكَ وسوفُ تُسألون ﴾[1] .

وقعةُ بابل [2] :

قال الطبريُّ : وفي هذه السنةِ[3] كانت بـــين المســـلمين وفارسَ وقعاتٌ كثيرةٌ وذلك حين بعث أميرُ المؤمنين عمـــرُ رضي الله عنه إلى سعدِ بنِ أبي وقاصِ يأمرهُ بالمسيرِ إلىالمدائنِ.فاستجاب سـعدٌ رضي الله عنه لهذا الأمرِ،فعبأ جنودهِ وأخبرهم بالأمرِ،وجعل على مقدمـــةِ

[1] الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

[2] بابل : مدينة قديمة بناها الكلدانيون على الجانب الأيسر من الفرات.

[3] وهي سنة خمس عشرة , وقال غيره : كانت سنة ست عشرة .

الجيشِ زهرةَ بنَ حويةَ الذي قتل الجالينوسَ، ثم أتبعهُ بـــالأمراءِ واحداً بعد الآخرِ، منهم عبدُ الله بنُ المعتَّم، وشُــــرحبيل ابـــنُ السَّمطِ. وهاشم بنُ عتبةَ بن أبي وقاصٍ الذي جعله مكانَ خالدِ ابنِ عُرفُطة، وجعل خالداً هذا على الساقةِ[1] وانطلقتِ الجيــوشُ الإسلاميةُ على راياتها في خيولِ عظيمةِ، وأسلحةٍ كثيرةٍ حـــتى نزلوا مكانَ الكوفةِ، و لم تكن يومئذٍ مبنيةً . أما زهرةُ بنُ حوّيــة فقد تابع طريقهُ إلى المدائنِ، فالتقى بجيشٍ للفرسِ عليه قائدٌ يقال له : يصبُهرى فاشتبك معه زهرةُ فهزمه، وهرب بجيشهِ إلى بابلَ فتبعه زهرةُ وإذا فيها جموعٌ كثيرةٌ من الفرسِ الذين هربوا يــوم القادسيةِ، وقد جعلوا الفيرزانَ أميراً عليهم، فكتب زهـــرةُ إلى سعدٍ يخبرهُ بذلك، فسار إليهم سعدٌ بجيشهِ حتى التقى معـــــهم ببابلَ فدارتْ بينه وبينهم معركةٌ قصيرةٌ سرعانَ ما حُســـمتْ لصالحِ المسلمينِ . ولقد عبرَ المؤرخون عن سرعةِ هزيمةِ الفيرزانِ وجنودهِ بقولهم: (فهزموهم كأسرع منْ لفةِ الرداءِ) وكـــان

[1] الساقة : مؤخرة الجيش

يصبُهرى **قائد** جيشِ الفرسِ قد أصيب بطعنةٍ مات بعدها، وتابع جنوده هزيمتهم وعليهم من القادةِ والرؤساءِ النخرجانُ، ومهرانُ الرازي ،والهرمزانُ، واستعملوا عليهم الفيرزانَ وأصبحوا في هزيمتهمِ فرقتينِ: فرقةٌ ذهبتْ الى المدائنِ ، وأخرى إلى نهاوندَ.

أقام سعدٌ ببابلَ أياماً فبلغه أن الفرسَ استخلفوا على جنودهم شهريارَ وكان دِهقانَ كوثى[1]فخرج إليه سعدٌ رضي الله عنه بجنوده.

فلما التقى الجيشان برز شهريارُ في أرضِ المعركةِ، وكانْ ضخماً طويلاً، وفارساً كبيراً، فجعل يطلبُ المبارزةَ ويقولُ: ألا رجلٌ ...!! ألا فارسٌ منكمْ شديدٌ عظيمٌ يخرجُ إليَ حتى أنكّلَ به ...!! فقال له زهرةُ بنُ حويةَ: لقد أردتُ أنْ أبارزكَ،فأمّا إذ سمعتُ قولَكَ، فإني لا أُخرجُ إليك إلا عبداً، فإنْ أقمتَ له

---

[1] كوثى : موضع بسواد العراق قريب من بابل .

قتلك إنْ شاء اللهُ تعالى ببغيكَ وإن فرَرتَ منه فإنما فرَرْتَ مـــنْ عبدٍ.

ثم نادى زهرةُ فارساً منْ فرسانِ المسلمين يقال له : أبـــو نباتةَ، نائلُ بنُ جعشُم الأعرجي،وكان منْ فرسانِ بـــني تميـــمٍ وشجعانهِم، فقال له: اخرج إليه ياأبا نباتهَ. فخرج إليه أبو نباتةَ وبيدِ كلِ واحدٍ منهما رمحُهُ. فلما رأى شهريارُ نائلاً ألقى رمحـه وانقضَّ عليه ليعتنقهُ، فألقى نـــائلٌ رمحـــهُ أيضـــاً وهَـــمَ بـــه ليعتنقَهُ،فانتزع شهريارُ سيفهُ ليغدرَ بنائلٍ، ولكن نـــائلاً كـــان محترساً منْ خصمهِ، ومتيقظاً له فامتشق حســـــامَهُ و لم يعطِـــهِ الفرصةَ ليغدرَ به.

فانقضَ عليه كالأسدِ ومضى يوجهُ إليه الطعنةَ تلوَ الطعنـةِ حتى استنفد قوتهُ، فتصاولا، وتجالدا، واعتنقا، وراحا يتصارعان فوقع أبو نباتةَ على الأرضِ، ووقع شهريارُ عليه كأنه ميـــــتٌ، فلما تبين له أنّه قد تغلبَ عليه أخرجَ خنجرهُ ليذبحَهُ، فوقـعـتْ أصبعُهُ في فمِ أبي نباتةَ فقضمَها حتى شغلَهُ بألمِهِ عنْ نفسهِ، فأخذ

منه الخنجرَ فذبحَهُ به، وأخذَ فرسَهُ وسلَبَهُ وسوارَيه. فلما رأى جنودُ الفرسِ مصرعَ قائدهِم غادروا أماكنهَم واشتدوا هاربين حتى تفرقوا في البلادِ. وأقام المسلمون بكوثى، فدعا سعدٌ ﷺ نائلاً ليكرمَهُ ويكافئَهُ على قتِلهِ شهريار، فقال له : عزمتُ عليك يانائلُ لما لبستَ سواريه ودرعَهُ وقباءه ولتركَبنَ برذونَهُ. فانطلق نائلٌ فلبسها،ثم أقبل على سعدٍ، فغنَّمهُ[1] ذلك كلهُ ثمْ قال له: اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فتلبسهُما. قال المؤرخون: فكان نائلٌ أولَ رجلٍ من المسلمين سُوِّرَ[2] بالعراقَ. وكوثى هي الأرضُ التي حُبَسَ فيها سيدُنا إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام قبل أن يهاجرَ إلى مصرَ، وكان سعدٌ رضي الله عنه قد قدم إلى تلك البقعةِ وزارها، وتلا قولهُ تعالى : ﴿ وتلك الأيامُ نداولُها بين الناسِ ﴾[3]

---

[1] غنمهُ ذلك : أي وهبه إياه وجعله له غنيمة .

[2] سوّر : أي لبس السوارين، ولم يكنِ العرب يلبسونها .

[3] الآية ١٤٠ من سورة آل عمران

وقعةُ بهرُسير :

ذكر الطبريُ أنْ اسمَ تلك المدينةِ بهرُسير. وذكر الواقديُ أنَ أسمَها همُشير. وعند ابن كثير في البداية أنها هَرَشير ... والله أعلم .وتقع في سوادِ بغدادَ قربَ المدائِنِ، وهي إحدى مدينتي كسرى ممايلي دجلةَ من الغربِ.

وكانْ سعدٌ ﷺ قد بعث أمامهُ زهرةَ بنَ حويةَ من كوثى إلى بهرُسير، ومضى هو حتى بلغ مكاناً يقالُ له: مُظلِم ساباط[1] أو المظلم بساباط، وكان به كتيبةٌ لكسرى تسمى : (بوران) وكان أفرادُ تلك الكتيبةِ يحلفون بالله كلَ يومٍ ،ويقولون : لايزولُ ملكُ فارسَ ماعشنا وكان معهم أسدٌ كبيرٌ لكسرى يقالُ له : (المقَرَّط) وقد أرصدوه في طريقِ المسلمين، فتقدم إليه هاشمُ بنُ عتبةَ، ابنُ أخي سعدٍ فقتلهُ بالسيفِ والناسُ ينظرون، فقبلَ سعدٌ رأسَ هاشمٍ وقبلَ هاشمٌ قدمَ عمِهِ سعدٍ وكانَ هاشمٌ قد سمى سيفهُ الذي قتل به المقرَّطَ :(المتين) وعند

---

[1] ساباط : مدينةٌ قرب المدائن ، وتسمى ساباط كسرى .

الطبري أنَّ اسمهُ: المنيةُ. ... والله أعلم. وحمل المسلمون على الفرسِ حملةَ رجلٍ واحدٍ حتى هزموهم، وأزالوهم عنْ أماكنِهم، ودخل المسلمون المظلمَ وهم يتلونَ قولَ الحقِ تبارك وتعالى: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم منْ قبلَ مالكم من زَوالٍ ﴾[1] وذلك رداً على قولِهم حين أقسموا: لايزولُ ملكُ فارسَ ماعشِنا، ثم ارتحل سعدٌ بجيشِهِ بعدَ أن ذهب جزءٌ من الليلِ حتى نزل على الناسِ ببهرُسير فبعث إلى أهلها سلمانَ الفارسيَّ ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل، أو الجزية، أوِ القتالِ، فأبوا إلا القتال، ونصبوا المجانيقَ[2]والدبابات، واستعدوا للقتالِ، فحاصرهمُ المسلمون حصاراً شديداً. فكان فرسانُ الفرسِ يخرجون من الحصارِ فيقاتلون المسلمين ببأسٍ وعنادٍ، ويقسمون أن لايخضعوا للمسلمين، ولايسلموا مدينتهمْ، فتصدى لهم زهرةُ بنُ حويةَ وقتل منهم عدداً كبيراً، ففروا أمامه،ودخلوا مدينتَهم فاعتصموا

---

(1) الآية ٤٤ من سورة إبراهيم .

(2) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة – معربة .والدبابة : آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن والجنود في داخلها .

بها، فأحكم المسلمون عليهمُ الحصــــار، فلــم يســتطيعوا أن يخرجوا، ومع ذلك أبوا أن يستسلموا حتى نفِد مالديهم مـــن طعامٍ،فاضطروا أن يأكلوا الكلابَ والسـنانيرَ[1] ووصلــوا إلى حالةٍ مترديةٍ وسيئةٍ من الجوعِ والضعفِ حتى أشــرفوا علــى الهلاكِ فأشرف رجلٌ منهم على المسلمين فقال : يقولُ لكــمُ الملكُ هل لكم إلى المصالحةِ على أنَ لنا مايلينا مــن دجلــةَ إلى جبلنا، ولكم مايليكم مـــن دجلــةَ إلى جبلكــمِ ...؟ أمــا شبعتم...؟ لاأشبَعَ اللهُ بطونكم. فقام رجلٌ من المسلمين يقــالُ له : أبو مقرِن [2]الأسودُ بنُ قبطةَ، فأنطقهُ اللهُ بكلامٍ لم يدرِ هو ماقال لهم، ثم رجع إلى موقعهِ، وإذا بــالفرسِ يخرجــون مــن بهرُسيَر إلى المدائنِ، فعجب الناسُ وقالوا له: ماقلتَ لهم ياأبــا مُقَرِن ...؟ فقال : والذي بعثَ محمداً ﷺ بــالحقِ مــاأدري ماقلتُ لهم ، إلا أنَ عليَ سكينةً، وأنا أرجو أن أكــونَ قــد

---

(1) السنور : الهر.

(2) وعند الطبري : أبو مُغزّر .

أَنطقْتُ بالذي هو خيرٌ. وأثار الفضولُ استغرابَ الناسِ من أمرِ أبي مقرنٍ، إنه لايعرفُ منطقَ الفرسِ، ولا يجيدُ لغتَهم، وماسمعهُ الناسُ يخاطبُ الفرسَ بالعربيةِ، ولا هم يجيدون لغةَ العربِ، فما الذي قاله لهم ...؟ فجعلوا يأتون إليه أفواجاً... أفواجاً يسألونه عما قاله لهؤلاء الفرسِ، حتى إنَ الأميرَ سعداً نفسهُ ذهب إليه يسألهُ فقال له : ياأبا مقرنٍ. ماقلتَ لهؤلاء الفرسِ...؟ فو اللهِ إنهم هُرّابٌ ...!! فحلف له أبو مقرنٍ أنه لايدري ماقال. فنادى سعدٌ في الناسِ ونَهَدَ بهم إلى البلدِ ومجانيقُ المسلمين تضربُ فيها فخرج منها رجلٌ ينادي بالأمانِ. وهو يقولُ : واللهِ مابالبلدِ من أحدٍ. فتسلقَ الناسُ السورَ فما وجدوا في المدينةِ أحداً فقد أخلوها من أهلهِا، وهربوا منها إلى المدائنِ، وتركوا مدينتهم. فسأل المسلمين الذين سألوا ذلك الرجلَ وبعضاً من الأسرى عن سببِ هروبهِم، فقالوا : بعث الملكُ إليكم يعرضُ عليكمُ الصلحَ، فأجابه ذلك الرجلُ بأنه لايكونُ

بينكم وبيننا صلحٌ حتى تأكلوا عسل أفريذين بأترج [1]كوثـــى. فقال الملكُ: ياويلَهُ ...!! إنْ الملائكةَ لتتكلمُ على ألسنتهم تردُ علينا. وتجيبنا عنِ العربِ ...!! ثم أمَرَ جنـــدهُ بـــالرحيلِ إلى المدائنِ، فركبوا السفنَ وعبروا بها دجلةَ إلى المدائنِ، وهي قريبـةٌ جداً. ودخل المسلمون بهرُسيرَ وليس فيها أحدٌ، فـــلاحَ لهـــمُ القصرُ الأبيضُ من المدائنِ، وهو قصرُ الملكِ كسرى الذي أخـبر النبيُ ﷺ أصحابهُ وبشرهم أنَ اللهَ تعالى سيفتحهُ عليهم. فكـان أولَ مَنْ رآه مِنْ المسلمين ضرارُ بنُ الخطابِ الذي نادى مـــن شدةِ فرحتِه وفرطِ حبـــورِه وغبطتـــهِ ... اللهُ أكـــبرُ ... اللهُ أكبرُ... أبيضُ[2] كسرى ... أبيضُ كسرى... هذا ماوعدنـا اللهُ ورسولهُ، وصدق اللهُ ورسولهُ.

وأخذ الناسُ ينظرون إليه ماضين في التهليلِ والتكبيرِ حتى طلوعِ الفجرِ.

---

(1) الأترج: نبات طيب الرائحة.

(2) أبيض كسرى: هو إيوانه. بناه كسرى أنوشروان سنة ٥٥٠ م.

معركةُ المدائن

موقعُها ـــ زمانُها ـــأسبابُهاـــ سيرُ أحداثِهاـــ معجزاتٌ وقَعتْ فيها ـــ نتائجُهُا.

أولاً : موقعها :

تقعُ المدائِنُ على نهرِ دجلةَ بينها وبين بغدادَ ستةُ فراسخَ، وهي مدينةُ سلمان باك اليوم.ناحيةٌ من نواحي بغدادَ[1]، وهي عاصمةُ الفرسِ . بناها أنوشروانُ بنُ قباذ وأقام بها هو ومَنْ جاء بعده من ملوك الفرسِ. ولقد وقعتْ جميع أحداثِها في نهرِ دجلةَ حيث أظهرَ المسلمون فيها شجاعةً فائقةً. وبطولةً خارقةً لم يحدثْ مثلُها في تاريخِ الأممِ والشعوبِ، و لم تشهدِ الدنيا صدقاً ووفاءً، وإخلاصاً وفداءً، وتضحيةً وإباءً، وشجاعةً ومضاءً،

---

[1] انظر معجم البلدان .

وبطولةً وبلاءً مثلما حَدثَ يومئذٍ في معركــة فتــحِ المدائِــنِ، وخوضِ غمار حربٍ في لجة الماء. إننا لانكادُ نسمعُ أو نقرأُ عن معركةٍ أبلى فيها جنودُ المسلمين وفرسانُهمُ، وفازوا بنصــرِ اللهِ وتأييدهِ في لجةِ الماءِ، وعلى وجهِ الماءِ مثلما نسمع ونقرأ عمّــا حدث للمسلمين في تلك المعركةِ المشرفةِ والخالدة. لقد خــاض المقاتلون المسلمون مع الفرسِ في لجةِ ماءِ نهرِ دجلةَ معركةً قويــةً وشرسةً أذهلتِ المسلمين أنفسهَم وهم الذين خاضوا غمارهــا، ومشوا في لجتِها لم يغرقْ منهم أحدٌ ولم يفقد أحد منهم شــيئاً، ولم يُصَبْ فرسٌ من خيولهم بأذى. ذلك أنهم كانوا صـادقين في أقوالِهم وأفعالهم، صادقين في قتالهِم وجــهادهِمْ في ســبيلِ اللهِ. مخلصينَ نواياهم للهِ، لاطمعَ لهم في شهرةٍ،ولامنصبٍ، ولاجــاهٍ، ولامالٍ ولاسلطانٍ، ولايريدون إلا وجهَ اللهِ تعــالى، والفــوزَ بنعيمهِ ورضوانهِ، وذلك غايةُ كلِ مؤمنٍ، ولايريدون علــواً في الأرضِ ولافساداً. صدقوا اللهَ، فصدقهمُ اللهُ، ثبتوا فثبتــهُمُ اللهُ . وصبروا فقواهمُ اللهُ، وأخلصوا العملَ للهِ، فكــان اللهُ معــهم

يحميهم ويحفظهمُ ويؤيدهم بنصره. عرضوا أنفسهم للأخطـــار، فحماهمُ اللهُ ، خاضوا البحارَ فذ لّلها لهم كما ذلّلَ لهمُ الـــبرَ، ونصرهم على عدوهمِ مع كثرتهِ وقلةِ عددهمِ، و﴿ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين ﴾[1]إنها :

وقايةُ الله أغنَتْ عن مضاعفـــةٍ   من الدروعِ وعن عالٍ من الأطمِ[2]

ثانياً : زمانها :

وقَعتْ معركةُ المدائنِ سنةَ ستَ عشرةَ كما ورد في تاريخِ الطبري، وتاريخِ ابنِ كثير (البداية والنهاية)، وذلك في شهرِ صفرِ.

ثالثاً : أسبابُها :

لايخفى على ذي لبٍ عاقلٍ شيءٌ من أسبابِ معركةِ فتـــحِ المدائنِ،فهي تعتبرُ استمراراً للفتحِ الإسلامي في العراقِ، وتتويجـــاً

---

[1] الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

[2] الوقاية : الحفظ، وأغنت : أجزأت ، والدروع المضاعفة : المنسوجة حلقتين حلقتين تلبـس للحفظ من العدو وقت القتال ، والأطمُ : الحصون العالية والواحدة أطمةٌ، ويجمـع أيضـاً على آطام .

لانتصاراتهِمْ بعد معركـــةِ القادســـيةِ، وتعميمـــاً لوجودهـــم فيها،وتنفيذاً لوعدِ رسولِ الله ﷺ،وتحقيقاً لحلمهِ القديمِ بفتـــحِ بلادِ الفرسِ، ودخولِ المسلمينِ قصرَ المدائنِ الأبيضَ كما تقـدمَ. وتصديقاً لقولِ الحقِ تباركَ وتعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَ الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون﴾[1]ولقولهِ تبـلوك وتعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ نَنْقصُها من أطرافهِا واللهُ يحكمُ لا معقبَ لحكمهِ وهو سريعُ الحسابِ﴾[2]ولقـــد ذكـــر بعض المفسرين أن المرادَ من نقصـــانِ الأرضِ مـــن أطرافـــها، الفتوحاتُ الإســـــلاميةُ الـــتي انتشـــرتْ في مشـــرقِ الأرضِ ومغربهِا،وشمالهِا وجنوبهِا ودانَ معظمُ أهلِها بالإسلامِ عن رضـــىَ وطواعيةٍ وقناعةٍ. ولقد وردت الأنباءُ إلى سعدٍ قائدِ الجيـــوشِ الإسلاميةِ في العراقِ وهو في بهرُسيَر أن كسرى يزد جردَ عـلزمٌ على نقلِ الأمـــوالِ والجواهـــرِ والأمتعـــةِ مـــن المدائـــنِ إلى

---

[1] الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

[2] الآية ٤١ من سورة الرعد .

حلوانَ[1] وذلك حين أدرك سرعةَ الفتحِ الإسلامي الذي كـــان يتبعهُ من مكانٍ لآخرَ، ويزعجُهُ ويقـــضُ مضجعـــهُ في الليـــلِ والنهارِ، ويجعلهُ خائفاً قلقاً مضطرباً، لا يعرفُ معنى الراحـــةِ، ولايذوقَ طعمَ النومِ، بل لايجدُ الكرى إلى عينيهِ سبيلاً، ولقـــد أصبح المسلمون منه على مرمى البصرِ، وأضحى هو صيداً ثميـنـاً جاءتْ به مقاديرهُ، وحانتْ فرصتهُ، وسُهلَ عليهمُ اقتناصـــهُ، فإلى أين يهرب ...؟ وإلى أيـــن يذهـــب ...؟ وإلى أيـــن سيتوجّه ...؟ وبمن يلـــوذ ...؟ وإلى مَـــنْ ســـيلجأُ ...؟ والمسلمون يفتحون بلادهُ بلداً بلداً... وقريةً ... قريـــةً ... ومدينةً بعدَ مدينةٍ ، ولايزالون ماضين في انتصاراتهم وفتوحاتِهِمْ حتى يُحكموا قبضتَهم على جميعِ بلادِ المشرقِ، وينشروا فيـــها نورَ الإسلامِ، ويغرسوا فيها مبادئَهُ وعدالتهُ وشريعتهُ ويرفعـوا في سمائِها لواءِ ه . ويظهروه على الدينِ كلهِ ولو كرهَ الكـــافرون.

---

[1] حلوان : في عدة مواضع ، حلوان العراق آخر حدود السواد ممايلي الجبال مـــن بغـــداد ، وهو السواد من حديقة الموصل طولاً إلى عبادان، ومن العذيب بالقادســـية إلى حلـــوان عرضاً... انتهى من معجم البلدان .

فأين سيختبيء يزد جرد من المسلمين وهم له بالمرصاد ...؟ ولن يكفوا عن مطاردتهِ حتى يظفروا به، ويكسروا شوكته. ويحطّموا غرورَهُ، ويقضوا على سلطانهِ، ويفتحوا بلاده. ويجعلوا أهلها يدينون بالإسلامِ، أو يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون، ويحققوا حلمَ نبيهمِ محمدٍ ﷺ بتحريرِ كاملِ بلادِ العربِ، الذي وعدهمِ بمفاتيحِ فارسَ وكنوزهمِ، وأنَ اللّهَ عز وجل سيفتحُ عليهم بلادهم، ويغنمهم أموالَهم وذراريهم.

رابعاً : سيرُ أحداثِها .

قبل ذكرِ سيرِ أحداثِ معركةِ المدائنِ لابدَّ من الرجوعِ إلى سببها لربطِ أحداثِها، ومن ثَمَ متابعةُ الحديثِ عن سيرِها.

قلتُ : إن الأنباءَ وردتْ إلى سعدٍ ﷺ أنْ كسرى يزد جردَ عازمٌ على نقلِ الأموالِ والجواهرِ والأمتعةِ من المدائنِ إلى حلوانَ. ولقد ذكرَ له بعضُ أمراءِ فارسَ ذلك وقال له: إنك إنْ لم تدركهُ قبل ثلاثٍ فاتَ عليك. وتفارط الأمرُ. وكان سعدٌ ﷺ قد رأى رؤيا وهو في بهرَسيرَ، أنَ خيولَ المسلمين

اقتحمتْ نهرَ دجلةَ فعبرته، وأقبلتْ من المـــدّ بـــأمرٍ عظيـــمٍ، فاستبشر بذلك خيراً. لذلك ربط سعدٌ بينَ رؤياهُ وبين الأنبـــاءَ التي وردتْ إليه، فَعَزمَ على تأويلِ رؤياهُ، وهمَّ بمطاردةِ يزد جردَ إلى المدائنِ لفتحِها، والقضاءِ عليه.فجمعَ جنودَهُ، ووقف فيـــهم خطيباً، وذلك على شاطىءِ نهرِ دجلةَ. فحمِدَ اللّهَ، وأثنى عليـــه وقال : إنَ عدوكم قدِ اعتصم منكم بهذا البحرِ فلا تخلصـــون[1] إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شـــاءوا، فيناوشـــونكم في سفِنهِم، وليس وراءكم شيء تخافون أنْ تؤتـــوا منـــه، فقـــد كفاكموهم أهلُ الأيامِ، وعطلوا ثغورهَم، وأفنوا ذادتهم.[2]وقـــد رأيتُ من الرأي أن تبادروا جهادَ العـــدو بنيـــاتِكمُ قبـــل أنْ تحصركُمُ الدنيا، ألا إني قد عزمتُ على قطعِ هذا البحرِ إليـــهم. فأجابوه جميعاً: عزم اللهُ لكَ ولنا على الرشدِ، فافعلْ.

---

[1] تخلصون إليهم : يقصد تنتهون إليهم .

[2] الذائد : الرجل الذي يحمي ويدفع ، والجمع ذادة

فسُر سعدٌ رضي الله عنه لجوابِهِمْ وعزمهم على الجهادِ معــــه ،وخــوضِ البحرِ والهــولِ بكــلِ صــدق وإخــلاصِ نيــةٍ، وانشــرح صدره،وظهرتْ أساريرُهُ ،وبَدَتْ على وجهِهِ علاماتُ البشــرِ والفرحِ، وتألق نوراً وبهاءً ونضرةً، ثم ندبهـــمَ إلى العبــورِ إلى الضفةِ الثانيةِ من النهرِ فقال: مَنْ يبدأُ ويحمي لنا الفراضَ[1]...؟ لكيلا يمنعونا من العبورِ... ؟ يقصدُ بذلــكَ تــأمينَ مكــانِ الوصولِ إلى الضفةِ الأخرى التي يرابطُ عليها العدوُ.

فقامَ عاصمُ بنُ عمروٍ ومعه ستمائةٍ مــن ذوي النجــدةِ والبأسِ والشجاعةِ، فجهز منهم كتيبتين: الأولى وأطلقَ عليــها اسمَ (كتيبةَ الأهوالِ) وأمرَ عليها عاصمَ بنَ عمروٍ. وأطلــقَ على الثانيةِ اسمَ (الكتيبةِ الخرساءِ) وأمرَ عليها القعقاعَ بــنَ عمروٍ.

وانطلــقَ عاصــمُ بنُ عمــروٍ، والقعقاعُ بـــنُ عمروٍ رضي الله عنهما يقودان أفرادِ الكتيبتينِ حتى انتهيا إلى ضفــةِ نهــرِ

---

[1] الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الجهة الأخرى .

دجلة، فوقفَ عاصمُ بنُ عمروٍ، وأخذ يتأملَ وجوهُ المقـــاتلين المؤمنين الذين جعلوا من أنفسهمِ فدائيين لدينـــهمِ وقضيتـــهمِ وقال لهم : مَنْ يذهبُ معي لنكونَ قبلَ الناسِ دخولاً في هـــذا البحرِ فنحميَ الفراضَ من الجانبِ الآخرِ... ولنحميكم حـــتى تعبروا؟... فانتدبَ له ستون من المقاتلين الشجعان، وكـــان عليهم أن يخوضوا دجلةَ إلى الضفةِ الأخرى لتأمينِ مكانٍ آمـــنٍ للجيشِ العابرِ القادمِ من خلفهِم. فأحجم بعضهم عن خـــوضِ النهرِ، فتقدمَ أحدُ المســـلمين فقـــال : أتخـــافون مـــن هـــذه النطفةِ...؟...!! وتلا قولَ الحقِ تبارك وتعالى : ﴿وما كـــان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذنِ الله كتاباً مؤجلاً ﴾[1] ثم اقتحم بفرسهِ على وجهِ الماءِ، واقتحمَ الناسُ بخيولِهِمْ خلْفَهُ، والفرسُ واقفـــون صفوفاً في الجهةِ الأخرى، وقد أصابتهُمُ الدهشـــةُ والذهـــولُ، وطار صوابهُم حين أبصروهم وهم يمشون على وجـــهِ المـــاءِ. فجعلوا ينظرون في وجوهِ بعضهِم ويقولون :ديوانا ... ديوانـــا

[1] الآية ١٤٥ من سورة آل عمران .

ويعنون أنهمْ مجانين ... مجانين. ثم قالوا : واللهِ إنكم لاتقـاتلون إنساً، بل تقاتلون جناً. فكان أولَ مَنْ اقتحمَ بفرسهِ وخـاض على وجهِ الماءِ ذلكَ الرجـلُ [1]المسـلمُ القـائلُ: أتخـافون النطفةِ...؟ وعاصمُ بنُ عمروٍ، والقعقاعُ بنُ عمـروٍ. وأصـمُ التيمُ، والكلجُ. وشرجبيلُ، وأبو مغزرٍ، وجحلُ العجليُ، ومالكُ ابنُ كعبٍ الهمداني، وغلامٌ من بني الحارثِ بنِ كعب [2].

فلما رآهمُ الفرسُ يمشون على وجهِ الماءِ،تقدموا نحوَهـم إلى الماءِ ليمنعوهم من الخروجِ أو ليقضوا عليهم داخـلَ المـاءِ فاقتحموا عليهم دجلةَ فأعاموها عليهم، فلقوا عاصماً الـذي كان أسرعَ منهم، وأشدَّ ذكاءً وحذراً، فنادى بأصحابهِ: أيـها المسلمون،الرماحَ... الرماحَ ... أشرعوها، وتوخوا العيـونَ. فجعلوا يصوبون رماحهم، ويوجهونها إلى عيونِ خيلِ العـدوِ يقلعونها، حتى قلعوا عيونَ الخيلِ جميعاً، فتراجع الفرسُ أمامـهم

---

(1) لم أعثر على اسمه .

(2) كما ذكر ذلك في تاريخ الطبري .

حتى خرجوا من الماءِ وقد فقدوا عيــونَ خيولهـــمِ، فكـــان في الحقيقةِ فقدانَ الخيولِ التي أصبحَتْ عاجزةً تماماً عـــــن حمـــلِ فرسانها لخوضِ المعركةِ.

وكانت هذه الفكرةُ الذكيةُ والرائعةُ من صنعِ عاصمِ بـــنِ عمروﷺ الذي نجح بتنفيذِ قلعِ عيونِ الخيلِ نجاحـــــاً خارقـــاً ومذهلاً، وقاتلَ الفرسَ حتى طردهم إلى الجهةِ الثانيةِ من دجلـةَ، وتبعه بقيةُ الفدائيين الستمائةِ فخاضوا النهرَ حتى وصلـــــوا إلى أصحابِهِم، فقاتلوا معهمُ الفرسَ حتى طردوهـــــم تمامـــاً عـــن أماكنهِم، ونجحتِ الخطةُ بمهارةٍ مذهلةٍ جداً، أذهلتْ سعداً قائدَ الجيشِ الذي جعل يضربُ كفاً بكفٍ ويقولُ: حسبنا اللهُ ونعـمَ الوكيلُ، واللهِ لينصرنَ اللهُ وليهُ،وليظهرَنَ اللهُ دينهُ، وليـهزمنَ اللهُ عدوَّه إنْ لم يكنْ في الجيشِ بغيٌ أو ذنوبٌ تغلبُ الحسناتِ.

فقال له سلمانُ الفارسيُ ﷺ وكان واقفاً إلى جانبـهِ: إنْ الإسلامَ جديدٌ، ذللتْ لهم واللهِ البحارِ كما ذللَ لهمُ البرُ، أمـــا والذي نفسُ سلمانَ بيدهِ ليخرُجُنَّ منه أفواجاً كمـــا دخلـــوا

أفواجاً. ولقد خرجَ المقاتلون المسلمون من المــاءِ كمــا قــال سلمانُ ﷺ لم يغرقْ منهم أحدٌ، و لم يفقِدْ أحدٌ منهم شـــكيمة فرسٍ، غيرَ أنَ رجلاً واحداً يقال له: غرقدةُ البارقي ذلَّ عـــن فرسٍ له شقراءَ فأخذ القعقاعُ بنُ عمروٍ ﷺ بلجامِها، وأخـــذ بيدِ الرجلِ ورفعه حتى عدَلَهُ مستوياً على فرسِهِ. هذا ... وقائدُ الجيشِ سعدٌ ﷺ ينظرُ إلى القعقاعِ بكلِ إعجابٍ، فانطَلَقَ لسانُهُ يعبِّرُ عن إعجابهِ الشديدِ به فقال: عَجَزَتِ النساءُ أن يَلدنَ مثــلَ القعقاعِ بنِ عمروٍ.

و لم يفقدِ المسلمون في هذه المعركةِ سوى عــودٍ لرجــلٍ يقالُ له : مالكُ بنُ عامر، كانتْ علاقتهُ رَثَةً فأخذهــا المــوجُ، فدعا مالكُ بنُ عامرٍ رَبَهُ عزَوجل فقال: اللهم لاتجعلْــني مــن بينهمِ يذهبِ متاعي. فردهُ له الموجُ إلى الضفةِ الأخــرى الــتي كانوا يقصدونها، فعثر عليه رجلٌ من المسلمين فأخذه، فردهُ إلى صاحبِهِ لم يتغيرْ منه شيء.

هذا ... وكان سعدٌ ﷺ قد أمرَ الناسَ أن يدخلوا المـــاءَ ويقولوا: نستعينُ بالله، ونتوكـــلُ عليـــه، حســبُنا اللهُ ونعـــمَ الوكيلُ،ولاحولَ ولاقوةَ إلا باللهِ العليِ العظيمِ. ثم اقتحمَ بفرسهِ دجلةَ،واقتحمَ الناسُ خلفهِ لم يتخلف منهم رجلٌ واحدٌ، فكانوا يمشون على وجهِ الماءِ كأنهم يمشونَ على أرضٍ صلبةٍ قويةٍ حـتى غطوا وجهَ الماءِ ، وهم يشعرونَ بالأمنِ والطمأنينة تغمرهـــم، وتملأ قلوبهم ثقةً وعزةً، وشعوراً صادقاً بنصرِ اللهِ وتأييدِه. حـتى لقد بلغ من شأنهمِ أن فرسَ أحدِهِمْ إذا تعب وهو في الماءِ جعلَ اللهُ تعالى له مثلَ الصخرة فيقفُ عليها فيستريحُ، حتى إن بعـضَ الخيولِ لتمشي والماءُ لايصلُ إلى أحزمتها. وهم وسط اللجـــةِ، وإنَ ماءَ دجلةَ ليرمي بالزبدِ، وإنَ النـــاسَ ليتحدثـون وهـم يخوضون كما يتحدثون وهم يمشونَ على وجهِ الأرضِ.

لقد كان ذلكَ اليومُ يوماً عظيماً، وخطباً جليلاً،أحـدث فيه المسلمون أمراً جسيماً. وأظهر اللهُ تعالى لهم معجزةً بـــاهرةً تضاءلَتْ أمامها جميعُ المعجزاتِ، إنها معجزةٌ عظيمةٌ لرســـولِ

الله ﷺ أجراها اللهُ تعالى لعبادهِ المؤمنين لم يرَ الناسُ مثلـهاَ، و لم يسمعْ بها أهلُ تلكَ البلادِ،ولاغيرها من بقاعِ الأرضِ.

إنها حادثةٌ وضيئةٌ وصادقةٌ تبرزُ الملامحَ العظيمةَ والمخلصةَ لجماعةٍ مؤمنةٍ نذرتْ نفَسها للهِ، وضحَتْ بكـــلِ مـــاتملكُ في سبيلهِ، وتفرّدتْ بصفاتٍ كريمةٍ، ومزايا نبيلةٍ بلغتْ بها الأفـــاقَ، لولا أنها وقعتْ بالفعلِ، وشهدَتْها الدنيا وراحت ترنو ببصرهـا وتحدقُ بعينيها،وتصغي بأذنيها. لولا أنها حَملتْ تلك الجماعـــةِ المؤمنةَ فوق ظهرها فعلاً لحسبَها الناسُ أحلاماً طـــائرةً، ورؤىً عابرةً وأناشيدَ حالمةً قد صاغَها خيالٌ محلقٌ،وأنشـــدها شـــاعرٌ ملهمٌ، وكتبها أديبٌ بارعٌ،ولكن هل تستطيعُ الأرضُ أن تحمـلَ فوقَ ظهرِها جماعةً صادقةً ومخلصـــةً ومتفانيـــةً مثـــلَ هـــذه الجماعةِ... ؟؟ اللهم، لا إلا إن تمتّعتْ بالصدقِ والإخـــلاصِ والتفاني في سبيلِ اللهِ كما تمتّعتْ به هذه الجماعةُ المؤمنةُ. وهـــل سيعيدُ اللهُ تعالى عصرَ المعجزاتِ، وخوارقَ العاداتِ، ويجريـــها مرةً أخرى ... ؟ إنَ عصرَ المعجزاتِ قد مضى وانتهى، ولكــنَ

الذينَ يمرون بالحياةِ، ويعبرون الأرضَ، ويتحلون بصفاتِ النبلِ والإخلاصِ، ويتسمون بسماتِ الصدقِ والإيمانِ قليلون جداً، ونادرون جداً، إلا أنهم يستطيعون أن يصنعوا المعجزات. ويعيدوا زمنَ خوارقِ العاداتِ، ويحققوا المجدَ والعزةَ والسيادةَ، ويدخلوا التاريخَ من أوسعِ أبوابهِ حين ينتصرون على أنفسهم، ويتغلبون على شهواتِهم، ويتفوقون على أهوائهِم. حين ينزعون من قلوبهِم حبَّ الدنيا، والرغبةَ في الزعامةِ. حين يفضلون النعيمَ الدائمَ على النعيمِ الزائلِ، حين يتعاونون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثمِ والعدوانِ. حين يأمرون بالمعروفِ. وينهونَ عن المنكرِ،ويتقون الله حقَ تقاتهِ. حين يلتزمون أوامرَ الله تعالى . ويجتنبون نواهيهُ. حين يرجعون إلى دينهمِ رجوعاً صادقاً،ويتمسكون بشريعتهم وقرآنهِم تمسكاً صحيحاً. حين يطبقون سنةَ أصحابهِ من بعده. حينَ يصبحون كالجسدِ الواحدِ، ويتخلون عن الشحِ والبخلِ والأنانيةِ. حين يؤثرون على أنفسهِم ولو كان بهم خصاصةٌ. حين يحبُ الفردُ

منهم لأخيـهِ ما يحبُّ لنفسهِ، ويضـعُ نصبَ عينيهِ قـول الحـقِ تبـارك وتعالى : ﴿ واعتصمـوا بحبـلِ الله جميعـاً ولاتفرقوا ﴾[1]وقولَ النبي ﷺ: (لايؤمنُ أحدُكم حتى يحـبَ لأخيه مايحبُّ لنفسهِ)[2] وقولِه ﷺ: (المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانهِ ويدهِ، والمؤمن منْ ائتمنـهُ النـاسُ علـى دمائِـهم وأموالِهم، والمهاجرِ مَنْ هجر ما نهى الله عنه)[3] حين يصبحون كذلك، وتتوافرُ فيهم صفاتُ المؤمنين الصادقين،ويتأدبون بأدب الإسلامِ، ويتخلقون بخلقِ القرآنِ حينئذٍ يستطيعون أن يصنعـوا المعجزاتِ، ويعيدوا زمنَ خوارقِ العاداتِ،ويحظـوا بنصـرِ الله وتأييدهِ، عملاً بقولِهِ تعالى : (وكـان حقّـاً علينـا نصـرُ المؤمنين)[4](والذين جاهدوا فينا لنهدينهمَ سُبلنا وإنَ الله لمـعَ المحسنين)[5]وهذا الوعدُ بالنصرِ صـادقٌ وثـابتٌ لايتغـيرُ،

---

[1] الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٢ـ٣) الحديثان رواهما مسلم في صحيحه .

[4] الآية ٤٧ من سورة الروم .

[5] الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

ولايتخلف،ولايحدد بزمان، ولايقتصر على فئة دون أخـــرى، فكلما استوفى المؤمنون شروط التأييد والنصر، فتح الله عليـهم، وأيدهم بنصره ، وهو القائل: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنـــا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهـم الغـالبون)[1] وجند الله تعالى: هم المقاتلون في سبيله بصدق وإخلاص في أي زمان ومكان، إن لم يصيبوا ذنب،أويرتكبوا معصية. وذلـك كما قال سعد بن أبي وقاص ﷺحين بهره مشـهد المسـلمين وهم يمشون على وجه الماء يوم المدائن: والله لينصرن الله وليـه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيـش بغي، أو ذنوب تغلب الحسنات.

خروج المقاتلين المسلمين من الماء :

أنجـز المقـاتلون المسـلمون مهمتـهم بكـل دقـة وإحكام،ونجحوا بتذليل الصعاب بكـل صـدق وإخـلاص، وخرجوا من الماء بكل توفيق ونجاح، وانطلقوا يطاردون الفرس

---

[1] الآيات ١٧١ ـــ ١٧٣ من سورة الصافات .

حتى أجلوهِم عن مواقعِهم، لم يفقدوا شيئاً، ولم يخسروا جندياً واحداً.

قال الطبريُ: لما دخلَ سعدٌ المدينةَ[1] الدنيا، وقطع القومُ الجسرَ، وضموا السفنَ. قال المسلمون: ماتنتظرون بهذه النقطةِ... !! ؟؟ فاقتحم رجلٌ،فخاض الناسُ فما غرقَ منهم إنسانٌ، ولاذهَبَ لهم متاعٌ، غير أن رجلاً من المسلمينَ فقد قدِحاً [2] له انقطعَتْ علاقتُهُ. قال راوي القصةِ، وكان من المقاتلين: فرأيتُهُ يطفَحُ على الماءِ، وذكرَ في موضعٍ آخرَ بسندِهِ عنْ أبي عثمانَ النهدي قال: طبقنا دجلةَ خيلاً ورَجلاً[3] ودوابَّ حتى مايرى الماءَ من الشاطىءِ أحدٌ، فخرجت بنا خيلُنا إليهم تنفضُ أعرافَها لها صهيلٌ، فلما رأى القومُ [4] ذلك انطلقوا لايلوون على شيءٍ، فانتهينا إلى القصرِ الأبيضِ، وفيه

---

[1] هي مدينة بهرسير .

[2] القدح: العود.

[3] الرجلُ : جمع راجل ،وهم المشاة.

[4] يقصد بالقوم : جنودَ الفرس.

قوم قد تحصنوا، فأشرف بعضهم فكلمنا. فدعوناهم وعرضنا عليهم، فقلنا: ثلاث تختارون منهن أيهن شئتم.

قالوا : ماهن ...؟ قلنا: الإسلام، فإن أسلمتم فلكم مالنا، وعليكم ماعلينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم، فمناجزتكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فأجابنا مجيبهم : لا حاجة لنا في الأولى، ولا في الآخرة، ولكن الوسطى، هذا... ومازالت حماة أهل فارس يقاتلون على الفراض [1] حتى أتاهم آت فقال: علام تقتلون أنفسكم ... !!

فوالله مافي المدائن من أحد.

يوم الجراثيم :

الجراثيم : جمع جرثومة، وهي ماارتفع من الأرض، مثل الصخرة.

---

[1] الفراض: فوهة النهر.

ذلك أن خيلَ المسلمين لقيتْ مشقّةً جسيمةً، وأصابها تعبٌ شديدٌ وهي تمشي على وجهِ الماءِ، فكان من فضلِ اللهِ تعـالى أن أرسل إليها تلك الجراثيمَ لتقفَ عليها فتستريحَ.

قال بعضُ المقاتلين المسلمين: كان يومُ ركـــوبِ دجلـــة يدعى يومَ الجراثيمِ، لايعيا [1] أحدٌ إلا انتشزتْ له جرثومةٌ يريحُ عليها.

هذا ... وكان الناسُ قدِ اقترنوا وهم يمشون على وجـــهِ الماءِ، ومِمنْ اقترنوا سعدٌ وسلمانُ الفارسيُ ﷺ فكانا قرينـــين يمشيانِ معاً ويتحادثان، فقال سعدٌ: ذلك تقديرُ العزيزِ العليـــمِ، حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل، واللهِ لينصرنَ اللهُ دينهَ، وليـــهزمَنَّ اللهُ عدوَّه، إن لم يكنْ في الجيشِ بغيٌ، أو ذنوبٌ تغلبُ الحســـناتِ. فقال له سلمانُ ﷺ: إنَ الإسلامَ جديدٌ، ذّلتْ لهم واللهِ البحـــورُ كما ذُلّل لهمُ البرُ.

---

[1] يعيا : يتعب .

أما والذي نفسُ سلمانَ بيدِهِ ليخرُجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً، قال الطبريُ: ومايزالُ فرسٌ يستوي قائماً إذا أعيا ينشزُ[1] له تلعةٌ[2] فيستريحُ عليها كأنه على الأرضِ، فلم يكنْ بالمدائنِ أمرٌ أعجبُ من ذلك، وذلك يومُ الماءِ، وكان يدعى يومَ الجراثيمِ.

ولقد خلّد أحدُ المقاتلين المسلمين ذلك اليومَ المجيدَ، وهو أبو مُجيدٍ،واسمُهُ نافعُ بنُ الأسودِ الذي قال:

وأسَلْنا على المدائنِ خيلاً ... بحرها مثلُ برّهنَّ أريضا[3]

فانتثْلنا خزائنَ المرءِ كسرى ... يومَ ولّوا وحاصَ منا جريضاً[4]

المسلمون يدخلون المدائنَ :

خرج المقاتلون المسلمون من نهرِ دجلةَ منتصرين، وهم يمشونَ على وجهِ الماءِ وأصواتُ تهليلِهِمْ وتكبيرِهم تعانقُ

---

(1) ينشز : يرفع .

(2) التلعة : ماارتفع من الأرض ، كالصخرة .

(3) أريضٌ : معجب للعين .

(4) انتثلنا : استخرجنا مافيها ، وحاص : ولّى مدبراً، جريضاً: مشرفاً على الهلاك.

السماءَ،وتملأُ مايحيطُ بهم من الأرضِ كأنها صواعقُ تـدكّ آذانَ أعدائهِم، وتصكّ وجوهَهم، وتقـذفُ الرعـبَ في قلوبهِـم، وخيولُ المسلمين تنفضُ أعرافها، وترفـع صهيلـها لتمـتزجَ بأصواتِ فرسانها، الأمرُ الذي أرعبَ الفرسَ وجعلهم يغـادرونَ أماكنَهم وهم يشتدون سراعاً لا يلـوونَ علـى شـيءٍ. ولا يَنشُدونَ سوى النجاة، كأنهم حُمُرٌ مستنفرةٌ. فرّتْ من قسـورة [1] هذا ... والمسلمون يطاردونهم حتى دخلوا عاصمةَ ملِكِـهمْ المدائِنَ، فدخلوها خلفهِم فلم يجدوا فيها أحداً، إلا ماكان مـن حصنِ القصرِ الأبيضِ فقد كان فيه بعضُ مقاومـةٍ، فجعـل سلمانُ الفارسي رضي الله عنه يكلمهم بلغتِهمْ، وكان رائدَ المسـلمين الذين جعلوه داعيةَ أهلِ فارسَ فقال لهم : إني منكم في الأصلِ، وأنا أرقُّ لكم، ولكم فيَّ ثلاثٌ أدعوكم بها الى مايصلِحكم: أن تسلموا فإخوانُنا، لكم مالنا وعليكمْ ماعلينا، وإلا فالجزيةُ، وإلا نابذناكم على سواءٍ إن اللهَ لايحبُّ الخائنين. فأبَوا أن يجيبـوا إلى

---

(١) القسورة : الأسد .

واحدة مما دعاهُمْ، فقاتلهُم المسلمون في اليومِ الأولِ، والثـاني، فلما كان اليومُ الثالثُ ألقَوا أسلحَتهم وخرجوا مـن القصـرِ مستسلمينَ ليدخلَهُ المسلمون فاتحينَ منتصريـن تحـتَ قيـادةَ أميرهِم سعدٍ ﷺ الذي نزلَ القصرَ الأبيضَ، واتّخذَ الإيـوانَ مُصلّى، بعدَ أنْ تلا قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿ كم تركوا مـن جناتٍ وعيونٍ. وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ. ونعمـةٍ كـانوا فيـها فاكهين. كذلك وأورثْناها قوماً آخرين ﴾[1] ثم دخلَ القـائدُ سعدٌ فصلى في الإيوانِ ثمانيَ ركعاتٍ صلاةَ الفتحِ، وأقام فيـه أوّلَ صلاةِ جمعةٍ،فكانتِ الأولى في العراقِ. ثم أرسلَ جنـوده في إثرِ كسرى يزدجردَ وجنودِهِ، لأنه كان قد أخذ أهلَهُ وكلَ مـا قدرَ على حملِهِ من مالٍ ومتاعٍ، وذهبٍ وجواهرٍ، وتركَ ما عجز عن حملِهِ من أنعامٍ وأغنامٍ، وثيابٍ وأثاثٍ وغيرِ ذلك، فأدركـه المسلمون واشتبكوا مع جنودهِ الذين قاتلوا المسلمين دفاعاً عـن ملكهِم يزجردَ، لكنهم لم يثبتوا إلا قليلاً، فغادروا أماكنِـهم،

---

[1] الآيات ٢٥ – ٢٨ من سورة الدخان .

إلا قليلاً، فغادروا أماكنهم، وهربوا في الأرضِ يبحثون عن يزدجردَ الذي هربَ فورَ وصولِ المسلمين فلم يهتدوا لمكانهِ، و لم يعلموا عنه شيئاً، فأخذ المسلمون ماتركه يزدجردُ من أموالٍ كثيرةٍ،وملابسَ فاخرةٍ، كما أخذوا تاجَهُ وحلِيهُ، ورجعوا إلى أميرهمِ سعدٍ، وكان ذلك في شهرِ صفرَ سنةَ ستَ عشرةَ من هجرةِ النبي ﷺ.

مواقفُ بطوليةٌ

لما هربَتْ جنودُ الفرسِ أمام المسلمين أدرك بعضُ مَـــنْ كان في المقدمةِ، مَنْ كان في مؤخرةِ الفرسِ، فكان رجلٌ مـــن المسلمين يقالُ له: ثقيفٌ أحدُ بني عديِ بنِ شريفٍ قـــد أدرك رجلاً من الفرسِ معترضاً على طريقٍ من طرقها يحمي مؤخـــرةَ أصحابهِ،فانقضّ عليه ثقيفٌ فضرب فرسهِ فأحجم و لم يتقـــدمْ، فأهوى إليه بالسيفِ فقتلهُ. وكان أحدُ فرسانِ الفرسِ في المدائنِ لم يغادرْ مكانه، وكان واثقاً بنفسهِ، فقيل له: قد دخلتِ العربُ وهربَ أهلُ فارسَ... !! فلم يلتفْتْ إلى قولِهمِ، ثم مضى حـــتى دخلَ بيتَ أحدِ أمرائِهمِ وهم ينقلون ثياباً وأمتعةً لهم، فقـــال: مالكم ...؟ قالوا : أخرجتْنا الزنابيرُ، وغلبتْنا على بيوتِنا، فدعا ذلك الفارسُ بجلاهقَ [1]وطينٍ، فجعلَ يرمي الزنابيرَ بالطينِ حتى قضى عليها، فأخذ أهلَ ذلك المنـــزل فركبَ ليخرجَ بهم، فمرَ

---

[1] الجلاهق : الطين المدور ، وقوس جلاهق : قوس نبل .

به رجلٌ من المسلمين فطعنه وهو يقولَ: خذهـــا وأنـــا ابـــنُ المخارقِ ...!! فقتله، ومضى لايلتفتُ إليـــه. وكـــان أحـــدُ المسلمين ينظرُ إليه فقال: فنظرتُ إليه فإذا هو ابنُ المخارقِ بـــنِ شهابٍ.

وأدرك رجلٌ من المسلمين رجلاً من الفرسِ معه عصابـــةٌ يتلاومون، [1]ويقولون: من أيِ شيءٍ فرَرنا ...؟

ثم قال قائلٌ منهم لرجلٍ منهم : ارفع لي كرةً،فرماها وهو لايخطئ، فلما رأى ذلك عاج [2]وعاجَ معه أصحابهُ، فانتـــهوا إلى الرجلِ المسلمِ، فرماه الفارسي من أقربَ مما كان يرمي منـــه الكرة، فلم يصِبْه ،فانقضّ عليه الفارس المسلم ، فضربه بالسيفِ فغلقَ هامتهُ وقال : أنا ابنُ مُشرّط الحجارةِ. فلما رأى أصحابـــهُ ماحلّ به تفرقوا عنه، وهربوا. وذكر الطبريُ بسندِه عن حبيـــبِ ابنِ صُهبانَ قال : دخلنا المدائنَ فأتينا على قبـــابٍ تركيةٍ مملوءةٍ

---

(١) يتلامون : يلوم بعضهم بعضاً ,

(٢) عاج : عاد ورجع .

مُختَّمة بالرصاصِ، فما حسبناها إلا طعاماً، فإذا هـــي آنيــةُ الذهبِ والفضةِ، فقسمتْ بعدُ بينَ الناسِ. وقالَ حبيبُ: وقـــد رأيتُ الرجلَ يطوفُ ويقولُ: مَنْ معه بيضاءُ بصفراءَ ... ؟

وأتينا على كامَورٍ كثير، فما حسبناهُ إلا ملحاً، فجعلنـــا نعجنُ به حتى وجدنا مرارتَهُ في الخبزِ.

وكان زهرةُ ابنُ حوّيةَ وهو الذي قتل الجـــالينوسَ يـــومَ القادسيةِ قد خرج بأمرٍ من الأميرِ سعدٍ إلى النهروانِ لملاحـــقةِ الفارّين، وجمـــعِ ما تركوا من الفيوءِ [1] فأدركهم عند جســرِ النهروانِ، وهم عليه، فازدحموا فوقع بغلٌ في الماءِ، فتهاتفوا عليه فأخرجوه.

فقال زهرةُ: إني أقسمُ باللهِ إن لهذا البغـــلِ لشـــأناً ...!! ماكَلِبِ [2] القومُ عليـــه، ولا صبروا للسيوفِ بـــهذا الموقفِ

---

(1) الفيوء : جمع فيء ، وهي الغنائم .

(2) كَلِبَ لبقومُ : تكالبوا عليه .

الضنكِ إلا لشيءٍ بعدَ ماأرادوا تركهُ. فلما قاتلهم زهرة وانتصر عليهم، واستخلصهُ منهم، فإذا عليه ثيابُ كسرى وحليِّه،ووشاحُهُ ودرعهُ التي كان فيها الجواهرُ، وكان يجلسُ فيها للمباهاةِ فأدرك زهرةُ سِرَّ حمايتهمِ لذلكَ البغلِ وتكالبهمِ عليه، واستماتِتهمِ في الدفاعِ عنه، فأخذ جميعَ ماعليه فردَّه إلى الأقباضِ، وهم لايدرون ماعليه، وارتجز زهرةُ قائلاً:

فدى لقومي اليومَ أخوالي وأعمامي … هم كرِهوا بالنهرِ خذلاني وإسلامي

هم فلجوا بالبغلِ في الخصامِ … بكل قطّاعٍ شؤونَ الهامِ[1]

وصرعوا الفرسَ على الآكامِ … كأنهم نعمٌ من الأنعامِ[2]

وذكر الطبريُ بسندهِ عن هبيرةَ بنِ الأشعثِ، عن جده الكلجِ قال: كنتُ فيمن خرجَ في الطلب[3] فإذا أنا ببغالين قد ردّا الخيلَ عنهما بالنّشابِ، فما بقي معهما غيرُ

---

(1) فلجوا بالبغلِ : ظفروا به .

(2) الآكام : جمع أكم ، ومفردها : أكمة .

(3) خرج في الطلب : أي في طلب مَنْ فر من جنود الفرس .

نُشّابتينِ،فألظظتُ[1] بهما،فاجتمعا، فقال أحدهما لصاحبهِ: ارمِه وأحمِيكَ أو أرميهِ وتحميني ... فحمى كـلُّ واحـدٍ منـهما صاحبهُ حتى رميا بها، ثم إني حملتُ عليهما فقتلتهما وجئـتُ بالبغلينِ ما أدري ماعليـهِما، حـتى أبلغتُـهما[2] صـاحبَ الأقباضِ[3] وإذا هو يكتبُ مايأتيه به الرجـالُ، وماكـان في الخزائنِ والدورِ.

فقال : على رِسلِكَ حتى ننظرَ مامعك ... !! فحططـتُ عنهما، فإذا سفطانِ [4] على أحدِ البغلينِ فيهما تاجُ كسـرى متسخاً، وكان لايحملهُ إلا أسطوانتانِ وفيهما الجواهـرُ، وإذا على الآخرِ سقطان فيهما ثيابُ كسرى التي كان يلبسُ مـن الديباجِ المنسوجِ بالذّهبِ المنظومِ بالجواهرِ.

---

(1) ألظ به : تبعه .

(2) أبلغتهما : أوصلتهما .

(3) الأقباض : جمع قبض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(4) السفطان : تثنية سفط ، وهو ما يخبأ فيه الطيب ونحوه ، والجمع أسفاط

وكان القعقاعُ بنُ عمروٍ ﷺ مِمّن خرج يومئذٍ في طلبِ الفارّين من جنودِ الفرسِ، فأبصر فارسياً يحمي قومهُ،فتصدّى له فقتلهُ، وإذا مع الفارسي جنيبةٌ[1] عليها عيبتان [2] وغلافان في أحدهما خمسةُ أسياف، وفي الآخرِ ستةُ أسياف، وإذا في العيبتين أدراعٌ، وفي الأدراعِ درعُ كسرى، ودرعُ هرقلَ،ودرعَ خاقانَ، ودرعُ داهر، ودرعُ بهرامَ، ودرعُ شويين، ودرعُ سيادِ خش، ودرعُ النعمان، وكانت الفرسُ قد استلبوها من هؤلاءِ أيامَ حروبهم معهم. وأما درعا النعمانِ وبهرام، فقد استلبوهما حين هربا وخالفا كسرى.

وأما الغلافُ الآخرُ ففيه سيفُ كسرى، وهرمزَ، وقياذَ، وفيروزَ،وكذلك سيوفُ هرقلَ،وخاقانَ. وداهرَ. وبهرامَ، وسيادخشَ. والنعمانِ. فأخذ القعقاعُ تلك السيوفَ وجاء بها إلى الأميرِ سعدٍ، فدفع بها إليه وقال: اخترْ أحدَ هذه السيوفِ.

---

[1] الجنيبة : الدابة التي يقودها صاحبها إلى جانب الدابةِ التي يركبها .

[2] العيبتان : تثنية عيبة ، وهو مايحفظ فيها الثياب كالصندوق .

فاختار سيفَ هرقلَ، وأعطاه درعَ بهرام، ووضع بقيـــةَ الأدراعِ والسيوفِ فوضعها في غنائمِ الكتيبةِ الخرساءِ، إلا سيفَ كسرى والنعمانِ فقد بعث بهما إلى أميرِ المؤمنين عمرَ ﷺ لتسمع بهمـا العربُ. وكذلك بعثَ إليه حلَي كسرى وتاجهُ وثيابهِ ليراهـــا المسلمون، وليسمعَ بها الناسُ ليتذكّروا ويعتـــبروا ويتعظـــوا، وليعلموا أنَ العزَ والسلطانِ والملكَ لايدومُ لأحدٍ وأنَ الـدوامَ لله وحدهُ. وليتأملوا بها وليتعظوا بمنْ كان يملِكها، ويرتديها ويخرجُ على الناسِ متكبراً ومتعالياً ... والآن أينَ هو ... ؟ وماذا حلّ بهِ ... ؟

لقد اغتَرّ بمِلكِه وسلطانِهِ، وركنَ إلى الحياةِ الدنيا واشـتراها بالآخرة، فخسرَ الدنيا والآخرةِ وذلكَ هو الخســرانُ المبــينُ. ﴿حتى إذا أخذتُ الأرضُ زخرفها وازّينتْ وظنَّ أهلُــها أنهـم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كـأنْ لم تغنَ بالأمسِ﴾[1] ﴿ أفرأيتَ إنْ متعناْهم سنين. ثم جاءهــم

[1] الآية ٢٤ من سورة يونس .

ماكانوا يوُعـدَون. ماأغنى عنهم ماكانوا يُمتّعون ﴾[1]
ونسيَ ذلك الشقيُ ومَنْ هم على شاكلتِهِ من الأشقياء أن الدنيا بالبلاءِ محفوفةٌ، وبالعناءِ معروفةٌ، وبالغدرِ موصوفةٌ،وهي بين أهلها دولٌ وسجالٌ، ولا تدومُ لأحدٍ على حالٍ ...

هي الدنيا تقولُ بمـلءِ فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكيْ
فلا يغرركمُ مني ابتسامٌ ... فقولي مضحكٌ والفعلُ مبكيْ

وروى الطبري بسنده عن عصمةَ بن الحارثِ الضبّي قال: خرجتُ فيمن خرجَ يطلبُ، فأخذتُ طريقاً مسلوكاً وإذا عليه حمّار[2] فلما رآني حثّه فلحقَ بآخرَ أمامه، فمالا، وحثا حماريهما فانطلقا يعدوان حتى انتهيا إلى جدول قد كسرَ جسرهُ، فثبتا مكانهما حتى أتيتهما، ثم تفرّقا، ورماني أحدهما فألظظتُ به فقتلتهُ وأفلِتَ الآخرُ. ورجعتُ إلى الحمارين، فأتيتُ بهما صاحبَ الأقباضِ.

---

[1] الأيات ٢٠٥ - ٢٠٧ من سورة الشعراء.
[2] الحمارُ: هو راكبُ الحمار، كما أن البغالَ راكبُ البغلِ.

فنظرَ فيما على أحدِهِا فإذا سفطان في أحدهما فرس من ذهب مسرجٍ بسرجٍ من فضةٍ، وعلى لَببهِ[1] الياقوتُ، والزمرُدُ منظومٌ على الفضةِ، ولجامٌ كذلك. وفارسٌ من فضةٍ مكلّل بالجوهرِ.

وإذا في الآخرِ ناقةٌ من فضةٍ، عليها شليلٌ [2] من ذهبٍ، وزمامٌ من ذهبٍ له شِناقٌ [3]،وكل ذلك مطعمٌ بالياقوتِ.

وإذا عليها رجلٌ من ذهبٍ مُكللٌ بالجواهرِ، كان كسرى يضَعُهما إلى أسطوانتَي التاجِ.

صورٌ من أمانة المسلمين وإخلاصِهِم :

روى الطبريُ بسنده عن أبي عبيدةَ العنبري قال: لمّا هبط المسلمون المدائنَ، وجمعوا الأقباضَ أقبل رجلٌ بحُق [1]

---

[1] اللبب : مايشد من سيور السرج في صدر الدابة .

[2] شليل : مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير .

[3] الشناق : حبل يجذب به رأس البعير .

[4] الحقُ : وعاء يوضع فيه الطيب .

معه،فدفعه إلى صاحب الأقباضِ، فقال الذين معه: ما رأينا مثلَ هذا قطُ ...!! ما يعدلُهُ ماعندنا ولايقاربهُ، فقالوا: هل أخذتَ منه شيئاً... ؟ فقال: أما واللهِ لولا اللهُ ماأتيتكمُ به. فعرفوا أنَ للرجلِ لشأناً، فقالوا: من أنتَ ... ؟

فقال: لا، واللهِ لا أخبركم لتحمدوني، ولاغيرَكمِ ليقرِّظوني[1]، ولكني أحمدُ اللهَ وأرضى بثوابهِ. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابهِ، فسأل عنه، فإذا هو عامرُ بنُ عبد القيسِ.

وروى هذه القصةَ غيرُ الطبري بصيغةٍ أخرى وفيها : أنّ رجلاً جاء من فتحِ المدائنِ على جوادهِ إلى المدينةِ، وحين بلغها فتحَ عمامَتَهُ وأخرجَ منها جوهرةً ثمينةً تقدرُ يومئذٍ بثمانين ألفَ دينارٍ، فرماها على الأرضِ، فقال له بعضُهُم: أهناك غيرُها...؟ فغضب الرجلُ غضباً شديداً وقال: واللهِ لولا اللهُ ماجئتكمُ بها

[1] التقريظ : مدح الانسان وهو حي ، وقرظ الرجل تقريظاً : مدحه وأثنى عليه .وفي الحديث : لاتقرظوني كما قرظت النصارى عيسى والتقريظ : مدح الحي ووصفه . انظر لسان العرب .

ولولا الله لمـــا رأيتمـــوني هنـــــا، تقولـــون: أو هنـــــاك غيرهـــا ... !!...؟؟ ماالذي دفعني حتى آتيَ بهـا ... ؟؟ ... ومَنْ يعلمُ أنها معي ... ؟؟ ... لولا أني أخافُ الله، وأراقـــبُ الله ... !! فقالوا: مَنْ أنتَ يرحمك الله ... ؟ وكان ملثّماً.

قال: لا، لا أخبرُكم فتمْدحوني، فيضيعَ الأجرُ، ويعلمَ بي أعدائي فيلوموني.

وعن جابرِ بنِ عبدِ الله ﷺ قال: واللهِ الذي لا إلــــهَ إلا هو،ماطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيـــا مـــع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليـــه من أمانتهم وزهدهم :طليحة بن خويلد، وعمرو بـــن معـــد يكرب،وقيس بن مكشوح.

وروى بسنده عن مخلد بن قيس العجلي، عن أبيه قال: لما قدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته،وزبرجـــده قـــال: إن أقواما أدوا هذا لذوو أمانة ... !

فقال علي : إنك عففت فعفت الرعية، ولو رتعت لرتعوا [١]

سراقةُ بنُ مالكٍ يلبسُ سواري كسرى :

استقر المسلمون بالمدائنِ، وجمعوا الغنائمَ والأموالَ وبعثـوا بها إلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطـــابِ ﷺ مـــع بشـــرِ بـــنِ الخصاصيةِ، وكان بين هذه الغنائم والأموالِ سوارا كســـــرى، وفي القومِ سراقةُ بنُ مالكِ بنِ جعشمٍ، فوضعتِ الأموالُ بـــين يدي عمرَ ﷺ الذي أخذ سواري كسرى فـــألقى بهمـــا إلى سراقةَ وقال له: اجعلهما في يديك. فلبسهما سراقةُ، فلما رآهما عمرُ في يديه فرح وقال: الحمدُ للهِ، سوارا كسرى بنِ هرمز في يدي سراقةً بنِ مالكِ بنِ جعشم، أعرابيٍ من بني مـــدلج ... !! وروي عنِ الشافعي ﷺ أنه قال: وإنما ألبسهما ســـــراقةَ لأنَ

---

[١] الرتع: الأكل والشرب رغداً في الريف، رتع يرتع رتعاً ورتوعاً ورتاعـــاً. خرجنـــا نرتـــع ونلعب: أي ننعم ونلهو .

رسول الله ﷺ قال لسراقة [1] ونظر إلى ذراعيه: كأني بك وقد ألبست سواري كسرى ... !!

وقال الإمام الشافعي ﷺ: وقد قال عمر لسراقة حين ألبسه سواري كسرى: قل الله أكبر.

فقال سراقة: الله أكبر. ثم قال له: قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك أعرابي من بني مدلج.

وعن محمد بن أبي بكر قال: بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسية إلى عمر بقباء كسرى وسيفه ومنطقته وسواريه وسراويله وقميصه وتاجه وخفيه، قال: فنظر عمر في وجوه القوم، وكان أجسمهم وأبدهم قامة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: ياسراق، قم فالبس، قال سراقة: فطمعت فيه، فقمت فلبست، فقال: أدبر، فأدبرت، ثم قال: أقبل،فأقبلت، ثم

---

[1] وذلك يوم هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقصتها معروفة

قال: بخٍ[1]... بخٍ ... أعرَابيٌّ من بني مدلجٍ عليه قباءُ كســـرى وسراويلهُ وسيفهُ ومنطقتهِ وتاجهُ وخُفاه ... رب يومٍ ياســـراقَ ابنَ مالك، لو كان عليك فيه هذا من متـــــاعِ كســـرى وآلِ كسرى، كان شرفاً لك ولقَومِــــكَ ... !! ثم قـــال: انـــزع، فنـــزعتُ.

فقال عمرُ ﷺ: اللهم إنك منعتَ هذا رسولكَ ونبيـــكَ، وكان أحبَّ إليكَ مني ، وأكرمَ عليكَ مني. ومنعتهُ أبا بكـــــر، وكان أحبَ إليكَ مني، وأكرمَ عليكَ مني، وأعطيتنيه، فـــأعوذُ بكَ أن تكونَ أعطيتنيه لتمكرَ بي، ثم بكى ﷺ وأرضاه.

وقال لعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ ﷺ: أقسمتُ عليكَ لما بعتَـهُ ثم قسمتَهُ قبل أن تمسي.

ورويَ أن عمرَ ﷺ حينَ ملَكَ ثيابِ كسرى وجواهـــرهِ وسيفهُ، ومعها عدةُ سيوفٍ منها سيفُ النعمانِ بنِ المنذرِ نـــائبِ كسرى على الحيرةِ قال: الحمدُ للهِ، الذي جعلَ سيفَ كســرى

[1] بخٍ ... بخٍ: كلمة تقال عند التعجب من الشيء .

فيما يضره ولاينفعهُ. ثم نظر إلى الجواهرِ وغيرها من أموالِ كسرى، قال مستغرباً: إنَّ قوماً أدوا هذا لذوو أمانةٍ.

فقال له عليُ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: إنك عَفَفتَ فعفتْ رعيتكَ. إنها نماذجٌ رائعةٌ في الصدقِ والإخلاصِ والوفاءِ. إنها نماذجٌ حيةُ وصادقةٌ تعكسُ التزامَ سَلفنا الصالحِ بآدابِ دينهم، وتوجيهاتِهِ السامية في التربيةِ الصالحةِ، والأخلاقِ الفاضلةِ، والسلوكِ القويم والمؤمنُ الحقُ هو الذي يراقبُ اللهَ تعالى في السرِ والعلنِ فيظهرُ ذلكَ على سلوكِهِ وأخلاقِهِ وتعاملِهِ مع الآخرين. فما أحوجنا أن نتخلّق بأخلاقِ سلفِنا الصالحِ ﷺ، وتنهجَ نهجَهم. ونقتفيَ آثارهُمْ ... !! ... ؟؟

فتشَبهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم إنَ التشبّه بالكرام فلاحُ

وصفُ القصرِ الأبيضِ وبساطِ كسرى :

شرعَ سعدٌ ﷺ يتجولُ في أنحاءِ القصرِ، ويتأملهُ قاعةً ... قاعةً، وشرفةً ... شرفةً وقد بهره كما بهرَ غيرهُ من القادةِ والجنودِ المسلمين ما فيه من نحتٍ ونقشٍ، وزركشةٍ وزينةٍ.

وتحفٍ وتماثيلَ، ولقد لفتَ انتباههُ تمثالٌ من جصٍ يشيرُ بأصبعـهِ إلى جهةٍ معينةٍ، فقال: إنَ هذا لم يوضَعْ هكذا سدىً.

فاتجه إلى مايسامتُ أصبعهُ، ومضى نحوه فـرأى كنـزاً عظيماً من كنوزِ الأكاسرةِ الأوائلِ، فأمرَ الجندُ أن يخرجـوه، فأخرجوا أموالاً كثيرةً وجواهرَ فاخرةً، وتحفاً تحـيرَ العقـولَ، وتبهرَ الألبابَ، ومنها تاجُ كسرى، وهو غيرُ تـاج كسـرى يزدجردَ المتقدمِ ذكرهُ، فإذا هو مكلـلٌ بـالجواهرِ النفيسـةِ، وكذلك منطقتهُ وسيفهُ وسوارهُ وقباؤه وبساطُ إيوانهِ، وكـان مربّعاً طولهُ ستون ذراعاً وعرضهُ كذلك، ومثلهُ البساطُ، فـهو منسوجٌ بالذهبِ الخالصِ، واللآلىءِ الثمينةِ،والجواهرِ النفيسـةِ. وفي البساطِ مصورٌ لجميع ممالكِ كسـرى، البـلاد بأنهارهـا وسهولِها، وجبالِها وقلاعِها، وأقاليمـها وكنوزهـاِ، وصفـةِ الزروعِ والأشجارِ والثمارِ التي في تلكَ البلادِ. فكان كسـرى إذا جلسَ على كرسيِ الملكِ ودخلَ تحتَ تاجهِ، وتاجهُ معلـقٌ بسلاسلَ من ذهبٍ، لأنه كان لايستطيعُ أن يحملَه على رأسـهِ

لثقله، بل كان يجيء فيجلس تحته، ثم يدخل رأسه تحت التـاج. والسلاسل الذهبية تحمله عنه، وهو يستره حال لبسه. فإذا رفع الحجاب عنه خرت له الأمراء والقادة والوزراء سجودا. وعليـه المنطقة والسواران والسيف والقباء المرصع بــأنواع ســاحرة وخلابة من الجواهر النفيسة، فينظر في البلدان بلدا ... بلــدا ، وقرية ... قرية فيسأل عنها ومافيها،ومن فيها مـــن العمـــال والنواب،وهل حدث فيها شيء... ؟ فيخبره ولاة الأمور بمـــا حدث فيها . ثم ينتقل إلى أخرى ... وهكذا حتى يسأل عـــن أحوال جميع البلاد.

فكانوا يضعون هذا البساط بين يديه ليذكر شأن الممـالك، فيسأل عن أحوالها،فلما كفروا بالله، وجحدوا نعمته، وتنكـروا لفضله جاءهم أمر الله فأزال الملك من أيديهم لينقلها إلى أيـــد مؤمنة جديرة بحمله، تعرف نعمة الله تعالى ، وتشكر فضلـــه، وتحسن التصرف بها بما يرضي الله تبارك وتعالى.

لقد أخذها المسلمون منهم قسـراً بعـد أن أنذروهـم وحاربوهم. وكسروا شوكتَهمْ، وانتصروا عليهم في معـاركَ كثيرة، وجولاتٍ متتابعةٍ. وطهَّروا أرضَ العراقِ من مجوسيتهم . وقضوا على جميعِ مظاهر الشركِ والوثنيةِ، وغرسوا فيها عقيـدةَ التوحيدِ، عقيدةَ الإيمانِ باللهِ وحَدهُ لاشريكَ له فـاعلٌ مدبـرٌ، مريدٌ مختارٌ. قال الله تباركَ وتعالى: ﴿ ذلك جزيناهم بما كفـروا وهل نجازي إلا الكفور﴾[١] ﴿ كم تركوا من جناتٍ وعيـونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ. ونعمةٍ كانوا فيها فاكـهين. كذلـك وأورثناها قوماً آخرين. فما بكتْ عليـهم السـماءُ والأرضُ وماكانوا منظرين ﴾[٢]صدق الله العظيم.

لعلَ قائلاً يقولُ: إذا كان هذا البساطُ بهذه العظمةِ والروعةِ والزركشةِ لماذا تركه يزدجردُ ولم يأخذهُ معه في جملةِ مـاأخذ من أموالٍ وكنوزٍ، وهـو يعلـمُ أن المسـلمين سـيجدونه

---

[١] الآية ١٧ من سورة سبأ .

[٢] الآيات ٢٥ – ٢٩ من سورة الدخان .

ويأخذونه... ؟ فقد يقال: إن البساط قد بلغ من عظمته وثقله حدا لم يكن الفرس يستطيعون حمله في حال الأمن والسلم إلا بشق الأنفس، فكيف سيحملونه في حالة الخوف والقلق والزلزلة...!! بل كيف سيحملونه وهم هاربون ... !! إنه سيشكل عليهم عبئا ثقيلا، ويسبب لهم حرجا كبيرا،لذلك تركوه لينجوا بأنفسهم. لقد تقاسمه المسلمون فيئا وغنيمة، واستوهب منه الأمير سعد ﷺ أربعة أخماس فبعث بها إلى المدينة بعد أن أمر به أن يطيب ويؤذن عليه، ثم بعث به مع بشر ابن الخصاصية، فنظر إليه المسلمون فعجبوا منه ، ودهشوا من عظمته، وما فيه من مهارة في العمل، وحسن زينة وزركشة، وبهاء منظر، فقسمه أمير المؤمنين عمر ﷺ في المسلمين، فأصاب عليا قطعة منه باعها فيما بعد بعشرين ألفا ... ! وقد روي أن عمر ﷺ أخذ خشبة،فألبسها ثياب كسرى، ونصبها أمام المسلمين ليروا مافيها من العجب والزينة والزخرفة،وما عليها من زهرة الحياة الدنيا ليتعظوا ويعتبروا بها،أين كانت...؟

وماذا حلَ بهـــا ...؟ وبأهلـــها ... ؟ وكيـــف انتّـــهَت إلى المسلمين... ؟ وكيف أصبَحتْ بـــين أيديـــهم ... ؟ ﴿ ولا تستعجلْ لهم كأنهم يومَ يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً مـــن نهارٍ بلاغٌ فهل يُهلَكُ إلا القومُ الفاسقون﴾[1]صدق الله العظيم.

تلكم روايةُ ابنِ كثيرٍ في البدايةِ والنهايةِ. وقال الطـــبريَ في تاريخِهِ: ولما أتيَ بحلي كسرى وزيهِ في المباهاةِ، وزيـــهِ في غـــيرِ ذلك،وكانت له عدةُ أزياءَ لكلِ حالةٍ زيٌّ، قال: عليَّ بمحلّمٍ[2] وكان أجسمَ عربي يومئذٍ بأرضِ المدينةِ. فألبسَ تاجَ كســـرى على عامودَين من خشبٍ،ونَصبَ عليه أو شـــحَتَهُ وقلائَـــده وثيابهُ، وأجلِسَ للناسِ. فنظر إليه عمرُ، ونظرَ إليه الناسُ،فـــرأوا أمراً عظيماً من أمرِ الدنيا وفتنتِها،ثم قام عن ذلك ، فألبسَ زيـــهُ الذي يليه،فنظروا إلى مثلِ ذلكَ في غيرِ نوعٍ،حتى أتى عليـــــها كلِها.

---

[1] الآية ٣٥ من سورة الأحقاف .

[2] محلِم : اسم رجل من المسلمين .

ثم ألبسه سلاحه، وقلده سيفه،فنظروا إليـــه في ذلـــك، ثم وضعه، ثم قال: والله إن أقواما أدوا هذا لذوو[1] أمانـــة ... !! ونفل [2] سيف كسرى محلما، وقال: أحمق[3] بـــامرئ مـــن المسلمين غرته الدنيا ... !! هل يبلغن مغرور منـــها إلا دون هذا أو مثله ... !! وماخير امرئ مسلم سبقه كسرى فيمـــا يضره ولاينفعه ... !! إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بمـــا أوتي عن أخرته،فجمع لزوج امرأته،أو زوج ابنته، أو امرأة ابنـه ولم يقدم لنفسه، فلو قدم امرؤ لنفسه, ووضـــع الفضـــول[4] مواضعها تحصل له, وإلا حصلت للثلاثة بعده. وأحمق بمن جمع لهم، أو لعدو جارف. أي أن المرء يجهد نفسه، ويكدح في هذه الدنيا،ويجمع المال من حلاله وحرامه ثم يموت ولايأخذ مما جمـع شيئا، ويترك كل شيء لغيره، فلربما تزوجت امرأته رجلا مـــن

---

[1] ذو بمعنى صاحب ، وذوو أمانة : أي أصحاب أمانة.

[2] نفله : أعطاه إياه نفلا ، أي وهبه إياه ، والنفل : الغنيمة .

[3] أحمق بامرئ : صيغة تعجب ، أي ماأحمقه ...!

[4] الفضول : المال الزائد .

بعدِه، فإن ذلك الرجلَ سيحلُ مكانهُ على فراشِهِ مع امرأتِــــهِ، ويسكنُ معها في بيتِهِ، ويضعُ يدهُ على مالِهِ، ليكــــونَ التعــبُ والنصبُ والجدُ والكدحُ والتبعةُ والمسؤوليةُ على الأول. والتنعَمُ والرفاهيةُ لزوجِ امرأتِهِ،أو زوجِ ابنتِهِ، أو امرأةِ ابنِهِ، وجميعُــــهم غرباءِ عنه ليسوا من ورثتِهِ الشرعيين، لـــذلك وصف ســـيدُنا عمرُ ﷺ مَنْ فعل ذلـــك، وبـــاعَ النعيـــمَ الدائـــمَ بـــالنعيمِ الزائلِ،بالحمقِ،والخبلِ في العقلِ، وفي ذلك يقـــولُ الله تبـــارك وتعالى: ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحيـــاةِ الدنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ﴾[1] ﴿ياأيها الناسُ إنّ وعدَ الله حـــقٌ فلا تغرَنّكمُ الحياةُ الدنيا ولايغرَنّكُم بالله الغَرورُ ﴾[2] ﴿اعلمـــوا أنّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوُ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكــــم وتكـــاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعَجبَ الكفارَ نباتهُ ثم يهيجُ فتراهُ

---

(1) الآية ٣٨ من سورة التوبة .

(2) الآية ٥ من سورة فاطر .

مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ مـــن اللهِ ورضوانٌ ومالحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرورِ ﴾[1] .

وصفُ بساطِ كسرى عند الطبري :

روى الطبريُّ بسندِهِ عن عبدِ الملكِ بنِ عُمَير في وصـــفِ بساطِ كسرى فقال: أصاب المسلمون يومَ المدائِنِ بهارَ كسرى، فشغل عليهم أن يذهبوا به، وكانوا يعدّونه للشتاء إذا ذهبـــتِ الرياحينُ،فكانوا إذا أرادوا الشربَ شربوا عليه فكأنهم في رياضٍ بساطٍ ستين في ستين. أرضُهُ بذهبٍ، ووشـــيهُ[2] بفصـــوصٍ، وثمرُهُ بجوهرٍ، وورقهُ بحريرٍ وماءِ الذهبِ وكانتِ العربُ تسـمّيه القطفَ. فلما قَسَمَ سعدٌ فيئهَم، جمع المسلمين فقال: إنَ اللهَ قــد مَلأَ أيديكم، وقد عَسُرَ قسْمُ هذا البساطِ، ولايقوى على شرائِهِ أحدٌ، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأميرِ المؤمنين يضُعهُ حيثُ شـاءَ. ففعلوا.

---

[1] الآية ٢٠ من سورة الحديد .

[2] الوشي : النقش والزينة ، والفصّ : مايركب فيه من غيره .

فلما قدمَ على عمرَ المدينةَ رأى رؤيا، فجمــــع النــاسَ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، واستشارهم في البساطِ وأخبرهَم خَــبرَهُ، فمِنْ بين مشيرٍ بقبضِهِ، وأخرَ مفوّضٍ إليه، وأخرَ مرقّقٍ. فقـــام عليٌّ حين رأى عمرَ يأبى حتى انتهى إليه، فقال: لمَ تجعلُ علمَكَ جهلاً، ويقينكَ شكاً ... ؟ إنه ليـــس لـــك مـــن الدنيـــا إلا ماأعطيتَ فأَمضيتَ، أو لبستَ فأبليتَ. أو أكلتَ فأفنيتَ، قال: صدقتَني، فقطعهُ فقسمهُ بين الناسِ. وقال في وصفِهِ في موضـــعٍ آخرَ: فيه طرقٌ كالصورِ،وفصوصٌ كالأنهارِ، وخـــلال ذلـــك كالديرِ. وفي حافاتِهِ كالأرضِ المزروعةِ والأرضِ المبقلةِ بالنبــاتِ في الربيعِ من الحريرِ على قضبانِ الذهـــبِ ونـــواره بـــالذهبِ والفضة وأشباهِ ذلك.

وقعةُ جلولاءَ

موقعُها :

تقعُ جلولاءُ على نهرِ ديالي على بعدِ سبعةِ فراسخَ من خانقين ،وهي بين خانقين ويعقوبا.[1]

سببُها :

ليستْ وقعتُ جلولاءَ مستقلةً عن معركةِ المدائنِ، و لم يقصِدها المسلمون ابتداءً من غيرِ سببٍ، أو لمجردِ الفتحِ، ذلك أنَ المسلمينَ حين فتحوا المدائنَ وخضعَتْ لهم، واستقرَ أمرُهم فيها، كان كسرى يزدجردُ قد خرجَ منها هارباً إلى حُلوانَ، وفي الطريقِ شرع يجمعُ الرجالَ والجنودَ من هنا وهناك، حتى اجتمع إليه عددٌ كبيرٌ من المقاتلين، أمّرَ عليهم قائداً يقالُ له (مهران) ومضى يزدجردُ إلى حُلوانَ. وأقام مهرانُ وجنودُه في

---

[1] معجم البلدان ، وفي المصباح ، جلولاء : بليدةٌ من سواد بغداد بطريق خراسان وبها الوقعة المشهورة .

جلولاءَ، وحفروا حولها خندقاً عظيماً، وامتنعوا فيـــه بـــالعَدد والعدّةِ وآلاتِ الحصارِ. هذا ماكان من أمرِ مهران، أما أهـــلُ الموصلِ فقد عسكروا بتكريتَ. وكانتِ الأنباءُ قد تسـوبتْ إلى سعدٍ ﷺ تحددُ مواقعَ جنودِ الفرسِ، فكتب إلى أميرِ المؤمنـــين عمرَ ﷺ يخبِرُه بذلك، فردَ عليه عمرُ يقولُ له أن يبقى هـــو في المدائنِ، ويبعثَ ابنَ أخيه هاشمَ بنَ عتبةَ إلى جلـــولاءَ في اثـــنيْ عشرَ ألفاً، وأن يجعلَ على مقدمتهِ القعقاعَ بن عمروٍ، وعلـــى الميمنةِ سعدَ بنَ مالكٍ، وعلى الميسرةِ عمروَ بنَ مالكٍ، وعلـــى المشاة عمروَ بنَ مرةَ الجهنيِّ: أما الفرسُ فقدِ اجتمعوا بعـــد أن ذاقوا مرارةَ الهربِ والخوفِ والهزيمةِ في محاولـــةٍ منـــهم لـــرد اعتبارهِم، والثأرِ لكرامتِهم، فقـــال بعضـــهُم: إنِ افـــترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكانٌ يفرقُ بيننا، فهلموا فلْنجتمعْ للعـــربِ به ولْنقاتِلهم، فإنْ كانت لنا فهو الذي نريـــدُ، وإ نْ كـــانتِ الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبدينا عـــذراً،فـــاحتفروا خندقاً واجتمعوا فيه تحت قيادةِ مهرانَ، ونفـــذ يزدجـــردُ إلى

حُلوانَ فنــزل بها. وفصل هاشمُ بنُ عتَبةَ من المدائِن في شـــهرِ صفرَ سنةَ ستَ عشرةَ يقودُ اثنيَ عشر ألفاً من المؤمنين، منـــهم وجوهُ المهاجرين والأنصارِ وأعلامِ العربِ، ومضى بهم حتى بلـغ جلولاءَ، فأحاط بالفرسِ، وضربَ عليهم حصاراً محكماً، فيمـــا كان الفرسُ قد تحصنوا داخلَ مدينتِهم تحصناً منيعاً، ومع هـــذا كانوا يخرجون من مدينتهِم فيقاتلون المسلمين قتالاً شـــديداً لم يُعْهَدْ مثلُهُ من قبل. وكسرى يزدجردُ يبعثُ إليهم بالأمدادِ المرةَ بعد المرةِ وبأعدادٍ هائلةٍ وكذلك كان يفعلُ سعدٌ، ويمدُ هاشمـــاً بجنودِ اللهِ، وفرسانِ المسلمين فخرج عليهمُ الفرسُ كأنهم رجـــلٌ واحدٌ، أظهروا يومئذٍ شجاعةً لم يشهدِ المســـلمون مثلَـــها في حروبِهمِ الكثيرةِ معهم. فقام هاشمُ بنُ عتبةَ في الناسِ يحثّـــهم على القتالِ، ويشجعُهم على الثباتِ في وجهِ عدوهِم، وعـــدمِ فكِ الحصارِ عنهم فقال: أيها المسلمون، أبلوا الله بلاءً حسناً يتمَ لكمُ عليه الأجرُ والمغنمُ، واعملوا للهِ، وأخلصـــوا لـــه النيـــةَ والعملَ.

فتصدوا لهم وقاتلوهم قتالاً عظيماً ومشرفاً، فبعث اللهُ عز وجل ريحاً شديدةً أثارتْ غباراً كثيفاً أصابَ أنوفَهم، وسَدَّ عيونَهم، وأظلم عليهمُ البلادَ، فكان الفرسُ وهم حولَ خندقِهم يدافعون عنه بكلِ ما أوتوا من صبرٍ وثباتٍ حتى تهاوتْ فرسانهم في الخندقِ، فلم يجدوا بداً من أن يجعلوا في الخندقِ فرضاً مِما يليهم لتصعَدَ منه خيولِهم، فأفسدوا بذلك حِصنهم. فتنبَهَ لهمُ المسلمون فقالوا: انهضوا إليهم ثانيةً حتى ندخلَ عليهمُ الحصنَ أو نموتَ دونَهُ، فلما نهضوا إليهم جعل الفرسُ يرمونهم بحسكِ الحديدِ من جهةِ الخندقِ التي تلي المسلمين لكي يمنعوهم منِ اقتحامِ الحصنِ، وتركوا ثغرةً من الجهةِ الأخرى خرجوا منها على المسلمين، فتصدوا لهم ودارَتْ بينهم معركةٌ ضاريةٌ، اقتتلوا فيها قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثلَهُ إلا ليلةَ الهريرِ.

هذا ... وقد حميَ الوطيسُ، واشتدَ القتالُ . واضطرمَتْ نارُ الحربِ حتى بلغَتْ ذروتَها ، وكان الفرسُ قد تعاقدوا وتعاهدوا فيما بينهم، وحلفوا بنارهِمُ المقدسةِ أن لايفروا حتى

يبيدوا العربَ، و لم يتركوا لهم أثراً في بلادِ فارس، فشدوا شدة رجلٍ واحدٍ، وتصدّى لهم العربُ المسلمون، وثبتوا في وجوهم ثباتاً مشرّفاً يدعو إلى الفخرِ والاعتزازِ، فقوي وطيسُ المعركة، واشتدَ أُوارُها، وكلُ فريقٍ حريصٌ على كسرِ شركةِ خصمِه والقضاء عليه حتى نفِدَ مالدى الفريقين من نبلٍ، وتكسّرت السيوفُ، وتقصَّفَتِ الرماحُ، والفرسُ يدخلون المعركةَ بأعداد هائلةٍ، يتناوبون القتالَ، تذهبُ فرقةٌ، وتجيءُ أخرى تقاتلُ بدلاً عنها، والمسلمون ينظرون إليهم، ويعلمون أنهم يتناوبون، فخشيَ القعقاعُ بنُ عمروٍ ﷺ أن يصيبَ المسلمين وهنٌ وضعفٌ حين يرون فرقَ الفرسِ يتناوبون تذهبُ فرقةٌ، وتجيءُ أخرى، فاندفع إلى الجهةِ التي تلي بابَ خندقِهم، فانطلق فيه وأمر منادياً فنادى:

يامعشرَ المسلمين، هذا أميرُكم قد دخل خندقَ القومِ وأخذ به فأقبلوا إليه، ولايمنعَنكم مَنْ بينكم وبينه مِنْ دخولِه.

شجاعة القعقاع بن عمرو :

وقف القعقاعُ بنُ عمروٍ ﷺوقدِ احتلَ موضعاً عالياً يشرفُ منه على المسلمين، ثم أخذ يشجعهمُ ويقولُ: أهالكم مارأيتم أيّــها المسلمون ...؟

قالوا : نعم، إنا كالّون، وهم مريحون. فقال: بـــل إنّـا حاملون عليهم ومجِدّون في طلبِهم حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينـــهم. فتشجّع المسلمون لذلك، وزال مابهم من تعبٍ وإعياءٍ، ورفعـوا أصواتَهم بالتكبيرِ، وحملوا على عدوِهِم حملةَ رجـــلٍ واحـــدٍ، واندفع القعقاعُ بنُ عمروٍ في جماعةٍ من الفرســـانِ الأشـداءِ، والأبطالِ الشجعانِ، فلم يقفْ في وجوهِهم أحـــدٌ، ولْم يقـمْ لحملتِهم شيءٌ حتى انتهوا إلى بابِ الخندقِ، فإذا بالقعقاعِ بـــنِ عمروٍ قد احتَلهَ وقتل كلَ من كان فيه من فرسانِ الفرسِ.

هذا ... ولايزالُ المسلمون يقاتلون بكلِ ضـــراوةٍ عنـــد بابِ الخندقِ ليمنعوا الفرسَ من احتلالهِ، حـــتى أقبـلَ الليـلُ بظلامهِ.وحرص المسلمون على احتلالِ مواقعَ أخرى مهمةٍ قبـل

حلول الظلامِ، ولقد أظهر المسلمون يومئذٍ بطولات خارقـــةً، وشجاعةً لاتوصفُ. منهم: طليحةُ بنُ خويلدِ الأسديُّ، وعمروُ ابنُ معدِ يكربَ، وقيسُ بنُ مكشوحٍ، وحجرُ بنُ عـــديٍّ، ولم يعلمْ هؤلاءِ الفرسانُ ماصنع القعقاعُ بنُ عمروٍ في ظلمةِ الليـــلِ، لولا أنهم سمعوا مناديهُ يقولُ: أين أيها المسلمون ... !! ... ؟؟ هذا أميرُكم على بابِ خندقِهم.

فحمل المسلمون نحو القعقاعِ فإذا هو على بابِ الخنـــدقِ قدِ احتلهُ وسيطرَ عليه فانضموا إليه يقاتلون معه حـــتى خيـــمَ عليهمُ الظلامُ ... كما تقدمَ.

فلما رأى جنودُ الفرسِ تشبثَ المســـلمين في أماكنـــهم. ودفاعَهم عنها دفاعاً مستميتاً أوقعَ اللهُ الرعـــبَ في قلوبـــهم، فغادروا أماكنِهم،واشتدوا هاربين، حتى تفرقوا في كلِ جهـــةٍ، فتَبعهم المسلمون وراحوا يلاحقوهم في كلِ مكانٍ، ويقعـــدون لهم كلَ مرصدٍ، حتى لقد رويَ أنهم قتلوا منهم يومئـــذٍ مائـــةَ

ألفٍ، حتى جلّلوا[1] وجهَ الأرضِ بالقتلى، ولذلك قيل: سميت جلولاءَ.

ولقد غنم المسلمون يومئذٍ أموالاً كثيرةً،وأسلحةً قريباً مما غنموا من المدائنِ. ولحق القعقاعُ بنُ عمروٍ مَنْ هرب مِنَ الفرسِ حتى أدرك قائدَهم مهرانَ فقتلهُ في موضعٍ يقالُ له: خانقين، وأدرك الفيرزانَ الذي ترجَّل عن فرسِهِ، واشتدَ هارباً وهو يصعدُ في الظّراب [2] حيث استطاع أن يهربَ من القعقاعِ الذي أشغلهُ عنه بعضُ جنودِ الفرسِ. فلما بلغ يزدجردَ هزيمةُ أهلِ جلولاءَ ومقتل مهرانَ قائِد جيشِهِ. خرج من حلوانَ هارباً إلى الري،وخلف فيها جيشاً عليه خسرَ وشنُوم، وأقبلَ القعقاعُ بنُ عمروٍ يطاردُ الهاربين من الفرسِ، حتى إذا بلغ قصرَ شيرينَ على بعدِ فرسخٍ من حلوانَ، خرجَ إليه خسرَوشنومُ

---

[1] جللوا وجه الأرض : غطوها ، وجللَ المطر الأرض : عَمها وطبقها فلم يدع شيئاً إلا غطى عليه .

[2] الظراب : الروابي الصغار .

يرافقهُ الزينبي دِهقانُ [1]حلوانَ، فقتل القعقاعُ الزينبي، وتمكنَ خسرَوشنوُم من الهربِ.

حرصُ عمر على سلامةِ المسلمين :

انتهتِ المعركةُ الفاصلةُ بمقتلِ الزينبي دِهقانِ حلوانَ. وهروبِ خسرَوشنوُم، فأراد القعقاعُ بنُ عمروٍ ﷺ أن يكلِلَ نصرَهُ بدخُولِ حُلْوانَ، فهي على مرمى البصرِ منه، ففيها كسرى يزدجردُ خائفٌ قلقٌ، مطاردٌ من المسلمين. ومختبيءٌ بين أهلِها، ومضطربٌ وجلٌ، قد فقد كلَّ أملٍ في النجاة، ويئسَ من كلِ أسبابِ الهربِ. إنه يهربُ من مكان لآخرَ، والمسلمون يطاردونه،ويفتحون البلادَ بلداً ... بلداً، وهاهو ذا الآن في حلوانَ وقد أضحى صيداً ثميناً، وذلولاً سهلاً، قد دنتْ فرصَتُهُ، وجاءتْ به مقاديرُه. ولكن أنّى للمسلمين أن يدخلوا حُلوانَ ليفتحوها، ويقبضوا على الطاغيةِ يزدجردَ ...!! أنى لهم ذلك قبل أن تأذنَ لهمُ القيادةُ السياسيةُ في المدينةِ، وهمُ الذين

---

[1] الدِهقان : أمير البلدِ ، أو كبير التجار .

لايقومون بعمل ما قبل أن يحصلوا على إذن مسبق من القيـــادة السياسية، وهم الذين يعلمون ذلك تماما، بل وتربـــــوا علـــى الأدب، وعلى السمع والطاعة، وتلوا ليل نهار قول الله تبـــارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرســول وأولي الأمر منكم ﴾[1] وأولو الأمر: هم ولاة أمور الأمـــة: خلفـــاء الرسول ﷺ، ومن ولي أمور المسلمين من بعدهم. وهم الذيـــن سمعوا رسول ﷺيعظهم ويعظ أبا ذر ابتداء حيث قـــال لـــه: (اسمع وأطع ولو لعبد مجدوع الأنف ...)[2] الحديث لذلـــك كان لامناص لهم قبل أن يدخلوا حلوان أن يحصلوا علـــى إذن بذلك من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ولو كلفهم ذلـــك التخلـــي عنها وعدم دخولها. فكتبوا في ذلـــك إلى عمـــر يســـتأذنونه بدخول القعقاع بن عمرو حلوان، فأبى، وقال: لـــو ددت أن

[1] الآية ٥٩ من سورة النساء.

[2] الحديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة مختصراً.

بين السوادِ[1] وبين الجبلِ سدا لايخلصون إلينا ولانخلصُ إليهم، حسبُنا[2] من الريفِ السوادُ.

إني آثرتُ سلامةَ المسلمين على الأنفالِ [3] ولاننسى وصيةَ عمرَ لسعدٍ ﷺ حين عينه أميراً على جيشِ المسلمينَ لحربِ العراقِ. وكتبَ إليه قائلاً: (واكتبْ إليَ بجميعِ أحوالِكم وتفاصيلِها ، وكيف تنزلون، وأين يكونُ منكم عدوكم، واجعلني بكتبِكَ إليّ كأني أنظرُ إليكم، واجعلني من أمرِكم على الجليةِ. وخفِ اللهَ وارجهُ، ولاتذلَ لشيءٍ، واعلم أنَ اللهَ قد توكّل لهذا الأمرِ بما لاخلفَ له،فاحذرْ أن يصرفِكَ عنه، ويستبدلَ بكم غيرَكم).

ومن شدةِ حرصِ عمرَ ﷺعلى سلامةِ جندِهِ أن كتب إلى سعدٍ يأمرهُ أن يقاتلَ المسلمون الفرسَ على حدودِ أرضِهم

[1] أرض السواد : أرض العراق وضياعها ، وسماه العرب سواداً لخضرته بالزروع والثمار ...

[2] حسبنا : كافينا .

[3] الأنفال : جمع نفلَ ، وهي الغنائم .

على أدنى حجر من أرض العرب،ولايقاتلوهم في عقر دارهم، فإن يظفر الله المسلمين فلهم ماوراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة.

وصول نبأ الفتح إلى المدينة :

استقرت الأمور، وهدأت الأحوال، وخلد من بقي بجلولاء من المسلمين إلى الراحة، في الوقت الذي تابع فيه القعقاع بن عمرو،وهاشم بن عتبة ﷺ مطاردة فل [1]الفرس إلى حلوان وغيرها. هنا جمع سعد ﷺ الغنائم ،وبعث بها إلى المدينة مع زياد بن أبي سفيان،وقضاعي بن عمرو، وأبي مقرن الأسود. فاستقبلهم المسلمون بالتهليل والتكبير، وفرحوا بمقدمهم فرحا شديدا، وأخذوا يسألونهم عن الحرب، وعن أحوال المسلمين في العراق، فأخبروهم أنهم بخير عظيم ونصر كبير من الله تعالى وأنهم يتمتعون بروح عالية من الشجاعة والاستبسال في سبيل الله.كما سأل أمير المؤمنين عمر ﷺ

[1] الفل : الجنود المنهزمون .

زيادا عن أحوال الحرب، فقصها عليه وكان زيـــاد فصيحـــا، فأعجب عمر بفصاحته، وحسن بيانه، فطلب منه أن يذكـــر ذلك للناس، ويزف إليهم بشرى النصر والفتح وسلامة المقاتلين المسلمين في حروب الفرس، فقال له: أتستطيع أن تخطب الناس بما أخبرتني... ؟

قال نعم، ياأمير المؤمنين، إنه ليس أحد على وجه الأرض أهيب عندي منك فكيف لا أقوى على هذا مع غـــيرك... !! فقام زياد في الناس فخطبهم، وقص عليهم خبر الحرب، وكيف قاتلوا، وكم قتلوا، وكم غنموا، وكيف انتصروا على الفـــرس، وهزموهم، وكيف ألحقوا بهم خســـائر جســـيمة في الأرواح والأموال. كل ذلك وزياد يتكلم بعبارات فصيحـــة وبليغـــة. فأعجب به عمر وقال: إن هذا لهو الخطيب المصقع [1] فقـــال زياد: إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا، هذا... وأموال الغنـــائم

---

[1] الخطيب المصقع : الفصيح .

بين أيدي المسلمين في المسجد، فتركها عمر، وبـــات عبـــد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن أرقم يحرسانها.

وفي صبيحة اليوم التالي دخل عمر المسجد، فكشف عنها فلما رأى الذهب الأصفر والفضة البيضاء، والياقوت والزبرجد بكى وانتحب، فقال له عبد الرحمن بن عوف: مايبكيك يا أمير المؤمنين ... ؟ فوالله إن هذا لموطن شكر. فقـــال عمـــر: والله ماذاك يبكيني، وتـــالله، مـــاأعطى الله قومـــا مثـــل هـــذا إلا تحاسدوا،وتباغضوا ، ولاتحاسدوا إلا ألقي بأسهم بينهم. ثم أمـــر بتوزيعها على المسلمين. وقد روى المؤرخون أنه كان بين فتـــح المدائن ووقعة جلولاء تسعة أشهر، وبين فتح المدائن والقادســـية سنتان ... والله أعلم. وقالوا: كانت تسمى فتح الفتوح لعظم غنائمها.

ماقيل في يوم جلولاء من الشعر :

انتصر المسلمون في يوم وقعة جلولاء انتصـــارا ســـاحقا، وفتح الله تعالى عليهم فتحا مبينا، فقام هاشم بن عتبـــة قـــائد الجيش يعبر عن مشاعر البهجة والفرح، وينقـــل إلى الأجيـــال

العربيةِ والإسلاميةِ وقائعَ تلك المعركةِ، ويشيدُ بذلك الفتح المبين والنصرِ العظيمِ الذي مَنّ اللهُ تعالى بهما على عبادهِ المؤمنين فقال ﷺ:

يومَ جلولاءَ ويومُ رستمْ — ويومُ زحفِ الكوفةِ المقدّمْ
ويومَ عرضِ الشهرِ المحرّمْ — وأيامٌ خلتْ من بينهنَ صُرّمْ
شيّبنَ أصداغي فهُنَ هُرّمْ — مثلُ ثغامِ البلدِ المحرّمْ[1]

وقال أبو نجيد في ذلك:

يوم جلولاء الوقيعة أصبحت — كتائبنا تروي بأسد عوابس
فضت جموع الفرس ثم أنختهم — فتبا لأجساد المجوس النجائس[2]
أفلتهن الفيرزان بجرعة — ومهران أردت يوم حز القوانس[3]
قاموا بدار للمنية موعدا — وللترب تحثوها خجوج الروامس[4]

---

[1] الثغام : شجرة بيضاء ، وقيل : نبات أبيض الثمر ، والواحدة : ثغامة .

[2] فض جموعهم: فرقهم وأزالهم عن مواقعهم. الحز: القرض والقطع.

[3] القوانس: جمع قونس، وهو مقدم الرأس، وقونس البيضة من السلاح: مقدمها، وقيل أعلاها.

[4] خجوج: جمع خج، وخج الشيء: شقه، والرامسة: هي الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار، والجمع روامس.

وهكذا ... يبدو لنا بوضوحٍ أن وقعةَ جلــــولاءَ ليسَـــتْ مستقلةً بذاتِها، و لم يقصْدِها المسلمون ابتداءً،إنما كانت بمثابـــةِ تكملةٍ لمعركةِ المدائنِ، واستمراراً لأحداثها ووقائِعها، لذلـــــك فهي تعتَبَرُ مع معركةِ المدائنِ معركةً واحدةً. ذلك أنَ المدائــــنَ هي عاصمةُ الفرسِ، وفيها إيوانُ كسرى والقصرُ الأبيضُ الـذي بشّر به النبيُ ﷺ أصحابهُ يوم الخندقِ، وقال: اللهُ أكــــبرُ ... أعطيتُ مفاتيحَ المدائِنِ، أو مفاتيحَ فارسَ، واللهِ إني لأرى قصــرَ المدائنِ الأبيضَ الآنَ من مكاني هذا. وحين سقطَتِ المدائـــنُ في أيدي المسلمين ودخلوها فاتحين، فرّ منها يزدجردُ هاربـــــاً إلى حُلوانَ، وأقام قائدُ جيشهِ مهرانُ وجنوده بجلولاءَ فكان لابــــدَ للمسلمين من أنْ يقضوا على مهرانَ ويفتحوا جلولاءَ، ومِــنْ ثم يتابعون طريقَهم بمطاردةِ يزدجردَ إلى حلوانَ. لذلــــك وقــفَ المسلمون أمام جلولاءِ، وفرضوا عليها حصاراً قوياً، ثم تمّ لهـــمَ الفتحُ والنصرُ والحمدُ للهِ ربِ العالمين.

فتح حُلوانَ

تقدمَ أن القعقاعَ بن عمرو ﷺ مضى يطاردُ يزدجردَ إلى حلوانَ فأدرك في طريقهِ مهرانَ قائدَ الجيشِ الفارسي فقتله، وأفلتَ منه خسرَشنوُم ووقف القعقاعُ ينتظر إذنَ أميرِ المؤمنين عمرَ بدخولِ حلوان، فلم يأذنَ له بادئ الأمر كما تقدمَ، ثم أذنَ له ، فدخلها القعقاعُ وأقامَ بها، وضرب الجزيةَ على أهلها، وعلى منْ حولها من الثغورِ والأقاليمِ بعد أن دعوا إلى الإسلامِ،فأبوا إلا الجزيةَ. وظلَ القعقاعُ بنُ عمروٍ مقيماً بحلوانَ حتى تحولَ سعدٌ من المدائنِ إلى الكوفةِ.وأما هاشمُ بنُ عتبةَ فقد رجع من جلولاءَ إلى المدائنِ ليتُمَّ مع عمِهِ سعدٍ رضي الله عنهما.وما إن وصل هاشمٌ إلى المدائنِ حتى بلغَ الخبرُ سعداً أنْ الفرسَ قدِ اجتمعوا تحتَ قيادةِ آذينَ بنِ الهرمزانِ، فبعثَ سعدٌ ﷺ جيشاً أمّر عليه ضرارَ بنَ الخطابِ بأمرٍ من أميرِ المؤمنين عمرَﷺ، فخرجَ ضرارٌ بجيشهِ من المدائنِ وجعل على

مقدمتَهِ ابنَ الهزيلِ الأسديَ الذي التقى بآذينَ بـــنِ الهرمـــزانِ فأسره وقتلَ مَنْ قتلَ من أصحابِهِ، وفَرَ مَنْ بقيَ منهم .

ثمَ أمرَ ابنُ الهزيلِ بضربِ عنقِ آذينَ بين يديه، ومضى هو يطاردُ مَنْ هرب منَ الفرسِ، حتى انتهى إلى مدينةٍ كبيرةٍ يقـــالُ لها (ماسبذانُ) فضرب عليها حصاراً قوياً، ثم فتحـــها عنـــوةً، وهرب أهلها إلى الشـــعابِ ورؤوسِ الجبـــالِ، فدعـــاهِم إلى الإسلامِ، فمنهم مَنِ استجاب له، ومن أبى منهم ضرب عليـــه الجزيةَ. وأقامَ فيها أميراً إلى أن تحولَ سعدٌ ﷺ منِ المدائِـــنِ إلى الكوفةِ. ولكن هل سيقفُ المسلمون هنا ...؟ وهل ســـتنتهي فتوحاتِهمُ عند حُلوانَ و(ماسبذانَ) ...؟ وهـــل ســـيتركون الطاغيةَ كسرى يزدجرَد يتحولُ من مكانٍ لأخـــرَ، ويشـــكلُ جيشاً يعرضهُم للقتلِ والدمارِ والاستئصالِ ... ؟ اللهم، لا.

نهايةُ الفرسِ :

لقد مزقَ اللهُ عز وجل مُلْـــكَ الفـــرسِ، وشـــردَّهم في الأرضِ، وقضى عليهم، وجعل نهايتَهم على أيدي المسلمين.

ولقد أنذرهُم اللهُ تعالى بزوالِ ملكِهم منذ ولادةِ رسولِ اللهِ ﷺ، روى ابنُ كثير في البدايةِ والنهايةِ بسندهِ عن ابنِ هانئ المخزومي عن أبيه – وأتَتْ عليه مائةٌ وخمسون سنةً – قال: لما كانتِ الليلةُ التي ولدَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ ارتجسَ إيوانُ كسرى، وسقطَتْ منه أربعَ عشرةَ شرفةً، وخمدتْ نارُ الفرسِ، ولم تخمدْ قبل ذلك بألفِ عامٍ، وغاضتْ بحيرة ساوةَ. ورأى الموبذانُ إبلاً صعاباً تقودُ خيلاً عِراباً، قد قطعَتْ دجلةَ، وانتشرتْ في بلادِهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك، فتصبرَ عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لايدخرُ ذلك عن مرازيبهِ ... إلى آخرِ القصةِ ولقد ذكرتها كاملةً في معركةِ ذي قارٍ، وهي الرسالةُ الأولى في هذه السلسلةِ. وبعد بعثةِ النبي ﷺ ، وبعد هجرتهِ إلى المدينةِ جعل يكاتبُ الملوكَ، فكتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلامِ،فغضب كسرى ومَزقَ كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ.

فلما بلغه ذلك قال: (مزق كسرى ملكه)[1] وفي راوية: أن سعيد بن المسيب ﷺ قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق، ولقد مزق الله ملكهم، وجعل نهايتهم على أيدي المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

ولقد ذكر البوصيري رحمه الله تعالى ذلك في قصيدته (بردة المديح) فقال:

أبان مولده عن طيب عنصره	ياطيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف	عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	ورد واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار مابالماء من بلل	حزنا وبالماء مابالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم	تسمع وبارقة الإنذار لم تشم
من بعد ماأخبر الأقوام كاهنهم	بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ماعاينوا في الأفق من شهب	منقضة وفق مافي الأرض من صنم
كأنهم هربا أبطال أبرهة	أو عسكر بالحصى من راحتيه رمي

[1] رواه البخاري ، وانظر تاريخ ابن كثير .

وقد جاء في وصفِ الأيوانِ أنه بناءٌ يبنى طولاً غيرُ مسدودِ الوجهِ، يعده الملكُ لجلوسهِ فيه لتدبر ملكِهِ، وقد كان سمكُ ذلك الإيوانِ مائة ذراعٍ في مثلها، ومكث في بنائِهِ نيفاً وعشرين سنةً، وكان يعتقدُ أنه لن يهدَمَ أبداً إلا في نفخةِ الصورِ، أي أنه لن يهدمَ إلى يوم القيامةِ. ولقد روي أنَ هلرونَ الرشيد أراد هدمَهُ حين سمع أنَ تحته كنزاً عظيماً، فعجز عن هدمِهِ فأبقاه. ولقد تصدعَ ذلك الإيوانُ مع عظمتهِ، وحسنِ إتقانِ بنائهِ، يوم مولدِ رسولِ الله ﷺ، وسقطتْ منه أربعَ عشرةَ شرفةً،فكان ذلك إيذاناً بزوالِ ملكِ الفرسِ.كما أن بحيرةَ سلوةَ قد غاض ماؤها .

ولم يبقَ منها مايدلّ على أنها كانت بحيرةً. حتى إنَ لهبَ النارِكان يخرجُ من قعرهِا، كأنما طبخَتْ أرضُها، وكانتْ هذه البحيرةُ عظيمةً تسيرُ فيها السفنُ، وكان طولُها ستةَ أميالٍ، بستةِ

أميالٍ عرضاً وقيلَ: كان طولُها عشرةَ أميالٍ، وعرضُها ستة ، وكان حولَها بيعٌ[1] وكناسٌ فتهدمَتْ جميعها.

فقد كان كلُّ ماحصلَ من هذه الإرهاصات [1] إنذاراً بالقضاءِ على دولةِ الفرسِ وزوالِ ملكِ بني ساسانَ من العراق، ولقد تحقّق ذلك بوعدِ اللهِ ورسولِهِ، وصدق الله ورسوله، والحمد لله رب العالمين.﴿ ولقد كتبْنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون ﴾ صدق الله العظيم.

خاتمةٌ في مقتلِ كسرى يزدجردَ :

كسرى ليس اسمَ علمٍ لملكِ الفرسِ،بل هو لقبٌ لكلِ من يعتلي عرشَ فارس.

ولقد كان مقرُ كسرى في المدائنِ، وفيها القصرُ الأبيضُ، والتاجُ والإيوانُ، فلما كانت معركةُ القادسيةِ، وانتصرَ فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً، ثم زحفوا إلى المدائنِ فافتتحوها،

---

[1] البيعُ : دور العبادة لليهودِ .

[1] الإرهاصات : مقدماتٌ للنبوةِ .

وهي عاصمةُ الفرسِ وقصرُ الملكِ كما تقــدمَ، هــربَ منــها يزدجردُ الى جلولاءَ، ومنها إلى حلوانَ، ومن حلوانَ إلى الــري كل هذا ولم يستقرَ في مكانٍ، وكلّما هرب إلى بلدٍ لحِــقَ بــه المسلمون ففتحوه، حتى انتهى به المطافُ إلى كرمانَ وفيها بقي خائفاً مذعوراً لأنَ المسلمين يتعقبونه أينما حلّ وحيثما توجّــه، كما أنَ أهلها لم يستقبلوه كما يجب ، فتحول منها إلى مــروٍ، وهنا أظهرَ إفلاسهُ من المالِ تماماً،فسأل أهلَ مروٍ مالاً فمنعــوه، ولم يعطوه شيئاً، وخافوا على أنفســـهمِ، فبعثــوا إلى الــتركِ يستفرونهم عليه فأتوه، فقتلوا أصحابهِ، وهرب هو حتى أتـــى منـــزلَ رجلٍ، فأوى إليه ليلاً،فلما نام قتله وأخذ مامعه. وقيل: إنه لما هرب بعد مقتلِ أصحابهِ، انطلق ماشياً وعليـــه تاجــهُ ومنطقتهُ وسيفهُ حتى انتهى إلى منـــزلِ ذلكَ الرجـــلِ وكـــان يعملُ بنقرِ الأرحيةِ[1] فأوى إليه .

---

[1] الأرحية : جمع رحى ، وهي حجر يستعمل في طحن الحبوب .

فلما نام نظر صاحبُ المنـــزلِ إلى تاجه وملابسهِ فعلم أنه الملكُ وأنه متشردٌ هاربٌ يطلبُ النجاةَ، فطمعَ بتاجهِ ومالــــهِ، فدنا منه فقتلهُ، وأخذ ماكان عليه، وجاءت التركُ في طلبــــهِ، فوجدوه مقتولاً، وليس معه ولا عليه شيءٌ فعدوا على صـاحبِ المنـــزلِ فقتلوه، وقتلوا أهلهُ معه، وأخذوا ماكان مع كسرى ثم وضعوهُ في تابوتٍ وحملوه إلى إصطخرَ.

وقيلَ : إن كسرى يزدجردَ لمـّـا هربَ عنه أصحابهُ عقـر فرسهُ، وذهب ماشياً حتى دخل على رجلٍ يعملُ بنقرِ الرحـــى، فمكثَ عنده ليلتين، وعدوُّهُ من التركِ في طلبهِ لم يدرِ أين هـو، كما أن صاحبَ المنـــزلِ لم يشعرْ بوجوده إلا بعد مضي يومين فلما رآهُ ورأى ماعليه من أبهةٍ وحليٍ أنكرهُ، واستغربَ وجودهُ في منـــزلهِ دون أن يشعرَ به، فقال له: ماأنت ؟ إنسيٌّ أم جنيٌّ؟ قال : إنسيٌّ ، فهل عندك طعامٌ ؟ قال: نعم، فأتاه بطعــــام، ثم خرج وأخبر عنه حاكمَ البلادِ، فقال الحاكمُ: هو يزدجــردُ، ثم أمر جنودهُ أن يذهبوا ليأتوا إليه برأسهِ، فلما دنا مـــن المـــنزلِ

تراجعوا عن قتلهِ، وقالوا لِمَنْ أخبر عنه: ادخلْ أنــــتَ فاقتلــهُ، فدخل عليه فوجدهُ نائماً، فأخذ حجراً فشدخ بـــه رأســـهُ، ثم احتزه فدفعه إليهم وألقى بجسدهِ في النهرِ، فخرج الناسُ إليــــه فقتلوه، ثم نزلوا إلى النهر فأخرجوا جثمانَ يزدجردَ، وجعلوه في تابوتٍ، وذهبوا به إلى اصطخرَ. ويروى: أنهم أحـــــاطوا بـــه ليقتلوه.

فقال لهم: ويحكم لاتقتلوني، فإنا نجدُ في كتبنا أنَ مـــــن اجترأ على قتلِ الملوكِ عاقبه اللهُ بالحريقِ في الدنيا مع ماهو قادمٌ عليه، فلا تقتلوني، واذهبوا بي إلى الملكِ أو الى العربِ، فـــإنهم يستحيون في قتلِ الملوكِ. فأبوا عليه ذلك، فسلبوا ماكان عليــه من الحلي، ثم تكاثروا عليه فخنقوه وألقوه في النهرِ. وتتابعُ هذه الروايةِ نهايته كما جاءَ في الروايةِ السابقةِ أن بعضهم أخرجــــهُ ووضعهُ في تابوتٍ ... الخ.

قال علماءُ التاريخِ: كان ملكُ يزدجردَ عشرين سنةً، منها أربعُ سنين في دعةٍ، وباقي ذلك هارباً من بلدٍ إلى بلدٍ، خوفـــاً

من الإسلامِ وأهلهِ، وهو آخرُ ملوكِ الفرسِ في الدنيـــــا علـــى الإطلاقِ، لقولِ رسول الله ﷺ: (إذا هلك قيصرُ، فلا قيصـــرَ بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعدهُ.والذي نفسي بيـــده لتنفقن كنوزهما في سبيلِ الله)[1]وصدق رسول الله ﷺ ، فلقـد حدث كما قال.

تمت الرسالة والحمد للّه رب العالمين
وإلى اللقاء مع معركة نهاوند

[1] رواه الشيخان ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير .

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة

معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ العدوا
الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دون إ
وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ بالنف
غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى إلى أ
نفوس الأبناءحبَّ التضحيةِ والفداء ، وحبَّ ابائهم الذين بذلوا دماءَهم
شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر



I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

